٢٤٥

HARLEQUIN

روايات احلام

الصياد الأسير

ماري ليونز

www.elromancia.com
مترجمة

الصياد الأسير

في الثامنة عشرة من عمرها، تعلقت أوليفيا بدومنيك فيتز شارلز، فتى سيء السمعة من أثرياء الطبقة الراقية. ولم تنسه قط، رغم أن دومينيك قد نسيها...

والآن في الثامنة والعشرين، عادت لتقابله في عرس للطبقة الراقية، وصممت أوليفيا أن تخفي مشاعرها جيداً... الى ان فاجأها بما جعلها ترتبك! فقد أعلن خطبتهما للصحافة أمام مجموعة من صفوة المجتمع... فكيف تستطيع أن تقول لا؟

www.elromancia.com

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥ دينار	مصر: ٥ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عُمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-078-8

حضرة اللورد «تنتردن»

يتشرف السيد والسيدة «روبرت تورنبول» بدعوتكم
لحضور حفلة زفاف ابنتهما
«سارا اليزابيث» من النبيل «مارك ريلاند»
في كنيسة القديس يوحنا - بيشوب غيت
نهار الجمعة ٧ كانون أول
في تمام الساعة الرابعة والنصف
وبعد ذلك في
«فندق كلاريدج»

منزل آل «تورنبول»
ليدز - يوركشاير

www.liilas.com

١ ـ الإشبين

كانت الساعة الرابعة من عصر يوم بارد غائم من أيام الشتاء في لندن، عندما توقفت أمام الكنيسة سيارة ليموزين سوداء.

ـ إننا مبكران قليلاً، أليس كذلك؟.

تمتم «مارك ريلاند» بذلك وهو ينظر بتوتر من السيارة إلى السلم الطويل المؤدي إلى مدخل الكنيسة المتوهج بالأضواء.

ـ لقد أعطتني عروسك العتيدة تعليمات واضحة، لا لأبقيك صاحياً ليلة الحفلة وحسب، بل لأحثك على الحضور إلى الكنيسة قبل العرس بنصف ساعة على الأقل.

أجابه «دومينيك فيتز تشارلز» بذلك بحزم، فقال مارك متذمراً:

ـ سيظن الجميع أنني ما زلت طفلاً.

فهز دومينيك رأسه ذا الشعر الأسود بسرعة وقال ساخراً: «آه، لا! أنت فقط عريس لا أهمية له. وإذا كنت عاقلاً فعليك أن تلبّي الأوامر».

ـ شكراً يا رفيق!.

فضحك دومنيك:

ـ لدى سارا ما يكفي من مشاكل، وإذا تأخرت عن الزفاف، فسيكون هذا القشة التي تقصم ظهر البعير، كما يقال.

ـ معها حق.

قال مارك هذا بينما السائق يدور حول السيارة ليفتح له باب السيارة.

يعيش مارك في «هونغ كونغ» لأنه موظف في بنك تجاري وجاء إلى لندن

منذ ثلاثة أيام لأجل حفلة زفافه وقد استطاع أن يتجنب مشقة تنظيم زواجه بسارا.

ويبدو مما استطاع أن يفهمه ضمناً أن خطيبته وأمها كانتا على خلاف مستمر ومن النادر أن يتفقا على أي شيء.

ولحسن الحظ أن إحدى صديقات سارا أخبرتها عن مؤسسة «الأعراس الراقية»، وهي مؤسسة تديرها فتاة مختصة بتنظيم الأعراس. وهي تتولى كل شيء ابتداءً من الزفاف في الكنيسة فحفلة الاستقبال التي تليه، وصولاً إلى حذاء العروس الملائم لثوب الزفاف.

لم يكن هذا يخفف عن خطيبته ذلك العبء فقط، بل يعالج أيضاً مسألة أمها الصعبة المراس، السيدة «تورنبول».

وكانت سارا قالت له منذ شهور، على الهاتف:

ـ هذا رائع جداً! «أوليڤيا» خبيرة في الأمور والمناسبات العصرية، فهي تمد يد العون إلى كل من يطلب منها ذلك. وقد استطاعت حتى أن تقنع أمي بأن تدعني أحصل على العرس الذي لطالما حلمت به.

إذاً الشكر لأوليڤيا تلك، التي يسّرت عليه أعباء حفلة زفافه القادمة.

ومنذ أيام قليلة خضع أخوه الأصغر لعملية الزائدة، ما جعله في حيرة تامة. فمن سيكون الإشبين سواه؟.

وقال مارك وهو يترجّل من السيارة الليموزين:

ـ أنا وسارا نشكرك حقاً. كانت صدمة لي أن أسمع، وأنا أنزل من الطائرة، ما حصل للمسكين جايمس. ولا أدري ماذا كنا سنفعل لولا مجيئك لانقاذنا.

ـ هراء. هذا أقل ما يمكنني فعله من أجل صديق قديم في المدرسة.

وضحك دومينيك لصديقه وهو ينضم إليه على الرصيف، متابعاً:

ـ لكنها ليست المرة الأولى التي أكون فيها إشبيناً، ولا أظنها ستكون الأخيرة.

قال هذا وهو ينظر إلى بذلة العريس السوداء الرسمية المماثلة لبذلته

هو، ذات الذيل والبنطون المخطط مع القميص الأبيض وربطة العنق الرمادية.

ـ انتظر لحظة.

ومد يده يعدّل من وضع القرنفلة الحمراء في عروة الرجل الذي كان أقصر قامة منه، ثم أضاف: «حسناً، أنت الآن تبدو غاية في الأناقة».

ثم ناول مارك القبعة السوداء العالية والقفازات قبل أن يربّت على ظهره مازحاً ببشاشة ثم يصعدان درجات الكنيسة.

ـ بالمناسبة، ما هي آخر أخبار أخيك؟.

ـ إنه يتماثل للشفاء بعد العملية، لكنه في غاية الاستياء والألم لأن حفلة زفافي ستفوته. لا أدري ما إذا كان عليّ أن أؤجل العرس إلى أن يُشفى ليتمكن من حضوره.

فقال دومينيك ساخراً:

ـ ما كانت والدة سارا لتسرّ لو أُجّل العرس في اللحظة الأخيرة.

لم يرَ دومينيك السيدة «تورنبول» الصعبة المراس سوى مرة واحدة، إنما بعد رؤيته وجهها المتصلب، حمد الله على أنها لن تكون حماته هو.

ـ معك حق. ما كان ليسرها ذلك.

وافقه مارك على ذلك عابساً، حامداً الله، هو أيضاً، لأنه، بعد شهر العسل في الجزر الكاريبية، سيذهب مع عروسه إلى حيث يمضيان عدة سنوات في هونغ كونغ بعيدين عن أمها.

وسأل مارك صديقه:

ـ وماذا عنك أنت؟ لماذا لم تتزوج بعد؟ ألم يحن الوقت لتستقر مع إحدى صديقاتك الرائعات الجمال؟.

سأله دومينيك بدهشة:

ـ وما الذي يجعلني أرغب في أن أحبس في قفص؟.

هز مارك كتفيه:

ـ أعني، أن يكون لك ولد تورثه تعبك و.....

فانفجر صديقه ضاحكاً:

ـ يا لك من رجعي قديم الطراز! لم يعد هناك من يهتم بالأتعاب هذه الأيام.

فسأله مارك غير مصدّق:

ـ ولكن ألا تضغط عليك أمك لتتزوج؟.

فما زال مارك يتذكر من أيام الدراسة في كلية «إيتون»، أن الكونتيسة «تنتردن» امرأة مخيفة مستبدّة، عنيفة في تصرفاتها، متشدّدة فيما يتعلق بالكبرياء العائلية. لذا لا بدّ أنها تلحّ عليه بالزواج لينجب وريثاً للقب الأسرة العريق. أجاب دومينيك بأسف: «آه، بلى! يجب أن أعترف بأن أمي الحبيبة قد تكلمت عدة مرات عن هذا الموضوع، بشيء من الإلحاح».

قال هذا وهو يشير بالتحية إلى بعض أصدقائه الذين تجمعوا عند أعلى الدرج لاستقبال المدعوين وإرشادهم إلى مقاعدهم داخل الكنيسة: «وعلى كل حال، لست مستعجلاً للاستقرار حسب تعبيرك لأنني مشغول جداً هذه الأيام. وثانياً.... فلنقل إنني لم أجد الفتاة المناسبة بعد».

آه، هكذا إذن؟ حدّث مارك نفسه بذلك بسخرية بينما تقدم دومينيك فجأة، يخطو بسرعة نحو مدخل الكنيسة المعتم قليلاً، وعلى جبينه عبوس خفيف، وهو ينظر في أنحاء المدخل... صحيح أن مارك كان يعيش خارج الوطن، إلا أنه كان يتابع دوماً الصفحة الاجتماعية في الصحف التي كان دومينيك يظهر فيها بانتظام. ليس لأنه كان الأعزب المثالي فحسب، بل لأن تنقله السريع من جميلة رائعة إلى أخرى أروع، كان ضماناً لبقائه حديث تلك الصفحات.

وإن لم يجد «دومينيك فيتز شارلز»، «إيرل تنتردن» الرابع عشر، الفتاة المناسبة فهذا لا يعني أبداً أن السبب هو قلة البحث والمحاولات.

صحيح أن من الصعب على رجل أن يحكم على آخر، ولكن مارك يجد صديقه جذاباً للغاية.

كان شعره أسود كثيفاً، أسمر البشرة نوعاً ما، روماني الأنف عالي الوجنتين ساخر الحاجبين، منظره كمنظر الصقر وهذا ما يثير حوله جوّاً

ضطراً. وفوق كل ذلك، كان عضواً في مجلس اللوردات ويسكن في قصر قديم شاعري، فلا عجب، إذن، أن يجذب الجنس الآخر كثيراً.

انقطعت أفكار مارك الحاسدة نوعاً ما، عندما استدار إليه صديقه وعلى ملامحه حيرة وعبوس وتمتم:

ـ هذا غريب، أقسم أن... فتاة بدت لي... مألوفة الشكل... رغم أنني لا أتذكر أين قابلتها، ولكن....

وهز كتفيه العريضتين:

ـ لكنني لم أجدها وكأنها تبخرت في الهواء.

فقال مارك مداعباً:

ـ أحقاً؟. أنا العريس من يُفترض به أن يكون ضائعاً مشوّشاً. فهل انتقلت العدوى إليك؟

ـ ربما.

وافقه دومينيك على ذلك ببعض الارتباك ثم دخلا الكنيسة متوجهين إلى مقعديهما في الصف الأمامي، إلى يمين الممر.

ولسوء الحظ، كانت أوليفيا جونسون تتذكر جيداً هوية الإشبين الطويل الأسمر الجذاب ذاك.

وعندما كانت تقف في مدخل الكنيسة، تتأكد من عمل «المستقبلين»، اتجهت عيناها ببطء نحو ذلك الرجل الطويل العريض الكتفين الذي يرافق رجلاً أقصر منه قامة.

لا أصدق هذا. ما الذي يفعله هنا؟ أخذت تسأل نفسها ذلك بعدم تصديق، وشحب وجهها وهي ترى ملامح «دومينيك فيتز تشارلز» الشبيهة بملامح الصقر قوة وغطرسة.

عندما شعرت أوليفيا فجأة بأنها على وشك الإغماء، وكأنها أصيبت بضربة عنيفة، تراجعت غريزياً إلى شرفة الكنيسة التي كانت مغمورة بالظلال، وحاولت استجماع شتات نفسها.

وعندما سمعت أصوات المستقبلين يرحبون بالقادمين، أدركت أن

الرجلين هما العريس وشاهده، وهذا يعني أن الحظ العاثر جعل دومينيك بديلاً عن شقيق مارك.

تملكها الرعب بعد لحظة وهي تراه يتقدم باتجاهها، فتسللت بسرعة من الباب السنديانى إلى حيث توارت عن الأنظار داخل الكنيسة.

وأسرعت إلى زاوية بعيدة ترتجف لاهثة وساقاها تكادان لا تحملانها.

ثم توارت بضعف بين المقاعد، وهي تحدّق بعينين لا تريان إلى الشموع المرتعشة على المذبح محاولة تهدئة أعصابها، وكانت تفكر في ما عليها فعله ازاء هذا الوضع المشؤوم.

ولحسن الحظ، لم يمض وقت طويل حتى أخذت تفكر بتعقل وبدأت تتحكم بأعصابها، ثم أخذت تحدث نفسها بحزم.

كان الأمر صدمة حقاً، لكن الهرب من وضع ما، مهما كان صعباً، هو عمل صبياني لا يحلّ المشكلة.

مع أن كل واحد منهما يعمل في مجال مختلف عن الآخر، ومع أنه لم يعد لديهما أصدقاء مشتركون، فقد كان عليها أن تتكهن بأنها ستقابله مجدداً عاجلاً أم آجلاً.

وفي الواقع، كان من الغباء منها ألا تفكر في ما عليها قوله أو فعله إذا ما جمعتهما الصدفة يوماً ما. أما لماذا لم تهيء نفسها لمثل هذا الحدث منذ وقت طويل قبل الآن، فهذا ما لا تعرفه.

حسناً، لم يكن ذلك صحيحاً تماماً، فليس من شخص عاقل يمضي الوقت بالتفكير في ماضيه التعس، ماضٍ لا تحتمل صاحبته ذكراه الحزينة بسبب تصرف أحمق صدر عنها. أضف إلى ذلك أنه مضى عشر سنوات على الأقل على ذلك الحدث المخجل والمريع الذي حدث لها هي ودومينيك، عشر سنوات أدركت أوليفيا أثناءها أنها تغيرت كلياً وتحمد الله لأنها لم تعد بنت الثمانية عشر عاماً، الغارقة في التصورات المجنونة عن أمير الأحلام.

لكنها، والحق يقال، لم تكن الوحيدة الحمقاء التي تيمّها حب دومينيك وسحره وجاذبيته، أو التي جذبها كما تجذب النار الفراشة، مشابهاً بذلك

جده غاوي النساء الشهير، الملك تشارلز الثاني.

ما أشد ما كانت معتوهة! بهذا أخذت أوليڤيا تحدث نفسها، وهي تهز رأسها نافضة منه حماقات صباها. أي شخص أحمق كان سيعلم أن كل ذلك سينتهي بالدموع، وهذا ما حدث فعلاً.

نهضت تنفض الغبار عن «طقمها» المخملي الأسود، وأخذت نفساً عميقاً محاولة نبذ ذكريات الماضي الحزينة من ذهنها، فهي لا تستطيع البقاء مختفية هنا، آسفة على نفسها. والواقع أن من الضروري جداً أن تعود إلى العمل في أسرع وقت ممكن. فهي المالكة الوحيدة لمؤسسة «الأعراس الراقية» التي تقدم الخدمات لمن يريد حفلة زفاف ناجحة... وهي تعلم أن نجاحها هو نتيجة عمل شاق وتخطيط في غاية الدقة والعناية، ولديها الآن ما يكفيها من العمل لجعل هذا العرس حلم العروس بالضبط.

ولو علمت مسبقاً أن دومينيك سيكون الإشبين بدل أخ العريس الذي نُقل إلى المستشفى فجأة، لاستعدت بشكل أفضل. لكنها تعلم أن الحياة تلقي حجار العثرة في الطريق في الوقت الذي لا تتوقع فيه ذلك، وعليها أن تواجه الوضع بأفضل ما تستطيعه.

ورغم هذه النصيحة التي أسدتها لنفسها، لم تستطع أن تفعل شيئاً للتحكم بالغثيان والتوتر الناشئين عن التوجس والتوتر اللذين يتملكانها.

أخذت نفساً عميقاً، مصممة على التركيز على عملها، ثم سارت ببطء مبتعدة عن تلك الزاوية الضيقة إلى وسط الكنيسة.

ـ أرجو منك... أرجو منك يا الله أن تصيب «دومينيك فيتز تشارلز» بفقدان الذاكرة!

كانت تدعو الله بإلحاح مؤمنة بأن الله الخيِّر سينقذها بشكل ما من ذلك الموقف المرعب والمخجل.

ـ لست واثقاً من أن قدومنا باكراً فكرة جيدة.

قال مارك هذا وهو يتحرك متململاً على الكرسي الخشبي الصلب

ـ إنه توتر أعصاب ليس إلا.

قال دومينيك هذا باسماً ببطء بسبب القلق الذي يكسو وجه العريس الشاحب، فتمتم هذا متجهماً خجلاً مما يشعر به من توتر:

ـ لابأس في هذا بالنسبة إليك. ربما أنت غير مستعجل للزواج، لكنني أتمنى أن أكون حاضراً لأضحك عليك عندما تتمكن امرأة ماهرة من جرّك إلى مذبح الكنيسة.

تمتم دومينيك وهو يتفرّس في صديقه باهتمام:

ـ هيه... أرح نفسك... سارا فتاة رائعة، وأنا أعلم أنكما ستكونان سعيدين، فاسكت إذن. اتفقنا؟

فأومأ مارك:

ـ نعم. آسف لأنني فقدت أعصابي.. فكل ما في الأمر... لا أدري...

وهز كتفيه بعجز. فقال دومينيك يخفف عنه:

ـ لن يطول الأمر الآن.

ولكي يصرف أفكار صديقه إلى اتجاه آخر، أضاف:

ـ بسبب مرض أخيك المفاجيء، لم نجد وقتاً للحديث عن واجبات الإشبين المعتادة. فماذا تريد مني أن أفعل بأجرة الكاهن؟ لقد أحضرت معي بعض النقود و...

فقال مارك:

ـ آه! لا حاجة بك للقلق، فالمرأة التي وجدتها سارا هي المسؤولة الآن عن كل هذه الأشياء الدقيقة والمملّة، والواقع أنها تقوم بكل شيء.

فرفع دومينيك حاجبه متهكماً:

ـ هل من خطب؟

فأومأ مارك:

ـ تقول سارا إن هذه المرأة، رتّبت كل الأمور. ومع أن ذلك قد يكلف أباها الكثير، إلا أن سارا تعتبره عملاً يستحق كل ما يُبذل لأجله، خاصة

أنها ستقيم حفلة العرس التي تريدها، وليس ما تريده أمها.

ـ يبدو أنها فكرة رائعة.

وافقه دومينيك على ذلك في حين ارتفع عزف «الأرغن» الناعم وارتفعت بعض الجلبة تنبىء عن دخول أوائل المدعوين إلى الكنيسة.

ـ آه... علمت أنني لم أكن مخطئاً.

وأومأ دومينيك إلى الناحية الأخرى من الكنيسة، حيث رأى فتاة تتسلق كرسياً بغية تعديل وضعية إناء زهور كان موضوعاً على عتبة نافذة عالية.

قال مقطباً حاجبيه بشرود:

ـ تلك هي الفتاة التي رأيتها أمام باب الكنيسة عند وصولنا. وما زلت واثقاً أنني رأيتها من قبل، لكنني لا أستطيع أن أتذكر أين ومتى...

ـ آسف، أنا أيضاً لا أعرف من هي، ولكن أقول، وأنا أراها صاعدة على الكرسي، إن ساقيها غاية في الروعة.

فتمتم صديقه هازلاً:

ـ أنت على حق، لكنها ليست اللحظة المناسبة لمثل هذا الكلام، لاسيّما وأنك ستتزوج بعد دقائق.

ضحك مارك. وقبل أن يرد عليه، رأى والديه قادمين متجهين إلى مقعديهما خلفه مباشرة.

وفيما كانت اللايدي «ريلاند» تقبل ابنها بسرعة، واللورد ريلاند يصافحه مهنئاً، وجد دومينيك نفسه يزداد ضيقاً لأنه لم يستطع تذكر تلك الفتاة الطويلة الرشيقة.

وما أزعجه أنها كما خُيل له، تتجنب النظر في اتجاهه. والحقيقة أنه لم يستطع أن يحظى بأكثر من نظرة قصيرة إلى وجهها الشاحب وشعرها الذهبي القاتم الذي تخفي معظمه قبعة مخملية سوداء عريضة الحافة، ومع ذلك ما زال يبدو له مألوفة إلى حد يثير الضيق.

عندما وصلت السيدة «تورنبول» والأطفال حاملي ذيل العروس،

والعروس مع أبيها إلى باب الكنيسة، وجدت أوليڤيا نفسها أكثر انشغالاً من أن تجد وقتاً للتفكير في دومينيك.

قالت تخاطب سارا بابتسامة عريضة: «تبدين رائعة للغاية».

ثم طمأنتها بسرعة إلى أن عريسها وصل وأن كل شيء على ما يرام.

ـ استريحي إذن واستمتعي بعرسك.

ـ نعم... أعلم ذلك. شكراً.

أجابتها سارا بذلك بعرفان جميل نابع من القلب، بينما أخذت أوليڤيا ترتّب لها طرحتها التي كانت تجرّها خلفها.

ـ لولاك، لكنت هنا واقفة مرتدية ثوباً كثوب جنيّة على شجرة عيد الميلاد.

تبسمت الفتاتان لبعضهما البعض وهما تتذكران معاركهما العديدة مع والدة العروس. لقد قالت تلك السيدة عابسة وهي تقابل أوليڤيا للمرة الأولى منذ أشهر:

ـ أريد أن تبدو ابنتي عروساً رائعاً. صحيح أنها ستتزوج من ابن لورد، لكنني لا أريد أن يوجّه أحد إلينا أي انتقاد، خصوصاً أن الفكة التي في جيب زوجي تفوق حساباتهم في المصرف.

يومذاك أجابتها أوليڤيا تخفف عنها متفهمة شعورها وتصميمها على ألا تشعر ابنتها بالمذلة لزواجها بأسرة ارستقراطية أعلى لقباً من أسرتها هي، وقالت لها:

ـ الحق معك تماماً.

كان والدا مارك، اللورد واللايدي «ريلاند»، بالغي الرقة واللطف، غير متكبرين، وسعيدين كثيراً باختيار ابنهما لعروسه هذه.

من ناحية أخرى، تعبت أوليڤيا كثيراً وأمضت وقتاً طويلاً في اقناع السيدة تورنبول، والدة العروس، بأن ذلك الثوب الذي اختارته لها لا يليق أبداً بابنتها الجميلة النحيلة السوداء الشعر.

وبرأي أوليڤيا، من القسوة أن تُرغَم أي فتاة على ارتداء مثل ذلك

الثوب المطرز بمبالغة والمرصّع باللؤلؤ وبغيره من الأحجار الكريمة... إن ذلك أشبه بالكابوس فعلاً. وكانت سارا قد أخذت تنوح بيأس.

ـ سأبدو فظيعة بهذا الثوب، سأبدو أشبه بكرة ثلج ضخمة. ساعديني يا أوليڤيا، أرجوك. يجب أن تشرحي لأمي أنني أقصر من أن أرتدي ثوباً كهذا. كما أن لونه الأبيض المتألق لا يلائم أبداً لون بشرتي.

وأخيراً، استطاعت أوليڤيا إقناع الأم بأن الأناقة والرشاقة أفضل من الفخامة. ورأت المرأة في النهاية أن ذوق سارا وأوليڤيا ليس سيئاً جداً... أدركت أوليڤيا الآن وهي تتأمل العروس بثوبها العاجي اللون، وتاجها الصغير الماسي الذي يشد شعرها الأسود الطويل إلى الخلف أن الأمر كان يستحق العناء.

فسارا لم تبدُ رائعة الجمال وحسب، بل بالغة الأناقة أيضاً.

ـ إن احضار الطفلتين التوأمين لرفع ذيل الثوب لفكرة رائعة.

قالت سارا هذا وقد نسيت المعارك التي نشبت بينهما وبين أمها بعد أن اختارت الثوب الذي تريده بالضبط. وأخذت تنظر إلى أوليڤيا وهي تناول الطفلتين باقتين من الورود الحمراء والعاجية اللون. وسألت أباها وهي تبتسم بسعادة للتوأمين ابنتي أخت مارك:

ـ ألا تظنهما جميلتين للغاية، يا أبي؟.

وكانت الطفلتان تلبسان ثوبين مخملين بسيطين بلون العاج يزينهما حزام قرمزي عريض مربوط إلى الخلف بفراشة، فبدتا ساحرتين.

فأجاب الأب وهو يسوّي ربطة عنقه، متمنياً لو أنه على بعد أميال:

ـ نعم، إنهما كذلك يا ابنتي.

ولم يكن هذا يعني أنه لا يحب ابنته، لكنه كان رجلاً لا يحسن الحديث، وأسعد أوقاته تلك التي يمضيها في مصنع النسيج الذي يمتلكه. ورغم انسجامه مع والد مارك وإعجابه به، كان يرى أنه كلما أسرع في العودة إلى بلدته، كان ذلك أفضل.

وعندما انحنت أوليڤيا لتسوّي ثوب سارا، سألتها هذه:

ـ هل رأيت الإشبين وتأملته جيداً؟.

تمتمت أوليڤيا:

ـ آه... نعم...

ولعنت في سرها ما شعرت به من توهج وجنتيها، ثم أخذت تحاول التركيز على ربط حذاء إحدى التوأمين. وضحكت سارا:

ـ هل هو رائع كما يقال... أم ماذا؟ نصف المدعوات إلى العرس، على الأقل، كن صديقاته، بينما النصف الآخر ينوين التحدث معه في حفلة الاستقبال بعد العرس.

وتملك سارا التوتر وتأبطت ذراع أبيها عندما عزفت الموسيقى نشيد الدخول.

انتظرت أوليڤيا حتى سارت العروس مع أبيها في ممر الكنيسة نحو المذبح، ثم جلست على مقعد في آخر الكنيسة.

ولكن على الرغم من بعد المسافة بينها وبين مقاعد المصلين، لم تفارق عيناها ذلك الشخص الطويل العريض الكتفين الأسود الشعر دومينيك فيتز شارلز، الواقف بجانب العريس.

كان فندق كلاريدج المفضل لدى أوليڤيا، بطرازه وزخارفه التي تعود إلى القرن التاسع عشر، وبسبب خبرته العريقة والواسعة بإقامة الاحتفالات والاجتماعات الرسمية... من حفلات العشاء البسيطة، إلى حفلات الرقص الكبرى التي يدعى إليها أفراد الأسرة المالكة، وغيرهم من ملوك أوروبا... ما يعني أن بإمكانها تسليم زمام الأمور لموظفي الفندق الأكفاء.

وكانت محقة تماماً. فقد مرت ساعة منذ وصول العريسين إلى الفندق بعد إتمام الزواج في الكنيسة. وبدا أن كل شيء يسير على ما يرام.

كانت غرفة الاستقبال الفسيحة رائعة، بثرياتها الضخمة وبأضوائها المنعكسة على ملابس الضيوف الأنيقة، وكانت سلال الأزهار الكبيرة تملأ الجوّ بعطرها الساحر، في حين كان جيش من الخدم يعمل على تلبية طلبات

المدعوين.

وفيما كانت واقفة في زاوية بعيدة من القاعة، نظرت بسرعة إلى ساعتها، ثم أدركت أنه ما زال أمامها عدة ساعات قبل أن تجد الراحة.

لم يكن ترتيب أمور الزفاف سهلاً، لأن العريس لم يعد إلى بريطانيا إلا قبل الزفاف بأيام قليلة، ولأن سارا كانت متطلبة بالنسبة إلى حفلة الاستقبال، فقد قالت عابسة:

- أريد حفلة عشاء راقصة. ولكن ماذا نفعل بكل هؤلاء المدعوين الكبار المسنّين، أصدقاء أبويّ؟ فلن تعجبهم فكرة الرقص وسيفضلون الجلوس واغتياب الناس.

ولكن بعد أن درست قائمة المدعوين، ولاحظت أن الكثير من أصدقاء سارا ومارك يعملون في الحيّ التجاري في لندن، اقترحت أوليڤيا أن يقام الزفاف في كنيسة قديمة في الحيّ نفسه وقالت لسارا وأمها:

- اعلم أن هذا غير معتاد، نوعاً ما، لكن ذلك سيسهّل على الرجال والنساء العاملين الذهاب إلى الكنيسة لحضور الزفاف قبل أن يذهبوا إلى الحفلة في فندق كلاريدج. وإذا بدأتم الحفلة بالعصير وقطع قالب الحلوى، وإلقاء كلمات الترحيب والتهنئة المعتادة، ستنتهي حفلة الاستقبال المعتادة، وعندئذٍ يمكن لمن يريد المغادرة أن يغادر الحفلة ويبقى الشبان ممن يريدون البقاء للاستمتاع بالرقص والعشاء.

فهتفت سارا:

- هذه فكرة جيدة جداً.

حتى الأم وافقت في داخلها لأن ذلك يوفر في طعام جميع المدعوين. ورغم انشغال أوليڤيا بالاهتمام بالحفلة، شعرت بأن ستواجه مشكلة كبيرة.

فمنذ اللحظة التي وصل هو فيها إلى الفندق مع العروسين، علمت أن دومينيك فيرز تشارلز الذي لم يتعوّد الخيبة بأي شكل كان، ما زال مصمماً على أن يعرف جواب ذلك اللغز الذي يزعجه منذ وصوله إلى الكنيسة.

أخذت أوليڤيا تحدث نفسها عابسة بأن ذلك الرجل اللعين غاية في العناد.

لذا راحت تبذل جهدها لكي تتجاهل تينك العينين الرماديتين الثاقبتين اللتين كانتا تلاحقانها بحدة في أنحاء القاعة أثناء اهتمامها بالمدعوين، ولحسن الحظ، اضطر دومينيك للوقوف مع العروسين ووالديهم لتقبل التهاني... ما جعلها آمنة لبعض الوقت.

ولكن بعدما وصل جميع الضيوف وأصبح دومينيك حراً، تملك الذعر أوليڤيا... ربما بالغت في شكوكها، ولكن بدا لها أنه يترصّدها فعلاً من بين حشود المدعوين، فعندما كان يحيي أصدقاءه ومعارفه ببساطة، كانت عيناه شاخصتين دوماً على قوامها الطويل الرشيق.

كاد يدركها عندما كانت مع المكلف الرسمي بإعلان شرب الأنخاب، يراجعان أوقات إلقاء الكلمات الترحيبية. ولكن لحسن حظها، استطاعت أن تنجو بسرعة، لاجئة إلى حمام السيدات.

وإذ تملكها الإرهاق فجأة من كل هذا الضغط النفسي الناتج عن وجود دومينيك، انهارت على مقعد عالٍ، وخلعت قبعتها وأخذت تحدق إلى نفسها أمام المرآة عابسة.

وأخذت تقول لنفسها: هيا، بحق الله، تمالكي نفسك وسيطري على الوضع!

رأت خطوط الإرهاق حول عينيها الخضراوين الواسعتين اللتين كانتا تبادلانها التحديق وهما تنضحان خوفاً وتوجساً.

منحها الدخول إلى الحمام فرصة لتغيّر تسريحة شعرها، وشعرت بتحسن بعد أن أعادت تمشيطه وجعلته كرة أنيقة على رقبتها.

تركت قبعتها العريضة مع المسؤولة في غرفة المعاطف، فعادت بذلك إلى مظهرها العملي المعتاد، ثم رجعت بحذر إلى قاعة الحفلة، حيث كان المسؤول عن الخطابات يجمع الأعضاء الرئيسيين في حفلة الزفاف في نهاية القاعة، قبل أن ينادي طالباً الصمت، ليسمح لكبار السن من أقرباء العروسين، بأن يهنئوا العروسين السعيدين.

وبما أن أوليڤيا معتادة على سماع الخطابات الطويلة التي تلقى في

الأعراس، لم تقف لتستمع إلى ما يقال فيها، إلى أن سمعت ويا للدهشة! اسمها يتردد فيها.

انتبهت فجأة، وحدّقت من فوق الرؤوس إلى حيث كانت العروس، فرأتها تمسك بالميكروفون وتقول للمدعوين بابتسامة عريضة:

ـ ونحن سعداء جداً لرؤيتكم جميعاً هنا اليوم. لقد سبق أن شكرت أبويّ وكل من له علاقة بزواجنا. لكنني أريد أن يعرف الجميع، أنه من دون مساعدة أوليڤيا جونسون ومؤسستها «الأعراس الراقية» التي تحملت عنا كل الإرهاق الذي كان سيصيبنا قبل الزفاف، لما كنت أنا ومارك هنا، لأننا على الأرجح كنا سنهرب لنتزوج وحدنا في جزيرة «غرينا غرين».

آه، رباه! سارا هدمت كل شيء الآن.

كان هذا أول ما خطر في بال أوليڤيا أثناء عاصفة التصفيق والضحك التي تردّد صداها في أنحاء القاعة.

وعندما رأت دومينيك يصفق وقد بانت على وجهه علامات النصر، أدركت أوليڤيا أن كل أمل لها في التخفي عن دومينيك، قد تبدّد الآن. وأثبت هذه الحقيقة تقدمه إلى الأمام ليؤدي خطابه بصفته الإشبين.

كان إداؤه ناجحاً، لولا تلك السخرية التي لمستها أوليڤيا في صوته وهو يرحب بـ (الأصدقاء القدماء) في الحفلة.

بدا قادراً على التنقل بسرعة الضوء. لأنها، بعد لحظة، أو لحظتين من قطع قالب الحلوى، شعرت بأن ذلك الرجل الطويل العريض المنكبين واقف الآن بجانبها.

قال لها ببطء وبلهجة مطاطة:

ـ عجباً، عجباً، ما أجمل أن أراك مرة أخرى يا أوليڤيا بعد كل تلك السنوات!.

لم ابتسم ساخراً لصاحبة الوجه الشاحب والقوام الرشيق التي بقيت ساعات تتجنبه بكل وضوح.

***

٢ ـ رجل من الماضي

قال دومينيك برقة:

ـ مضى وقت طويل على لقائنا الأخير.

فأجابت وقد هزتها رؤيته بجانبها بهذا الشكل المفاجىء:

ـ هذا صحيح.

ـ ماذا فعلت طوال تلك السنوات؟.

فهزت كتفيها:

ـ ليس الكثير.

ـ أحقاً؟ لكنني أراك اليوم مشغولة جداً.

ـ آه، نعم! أنا، كما ترى، أعمل على تنظيم الأعراس.

تجنبت عينيه وهي تتجاوزه بنظراتها إلى جموع المدعوين، فأطلق ضحكة جافة وقال بسخرية قاسية بدت في صوته:

ـ نعم، لاحظت هذا. هل هو عمل ناجح؟.

عادت تهز كتفيها مرة أخرى:

ـ أعيش منه بشكل معقول.

ـ أنا مسرور بسماع هذا.

والتوت شفتاه هزلاً دون أن يزعجه ما بدا على الفتاة من كراهية لمتابعة الحديث.

ـ ولكن ماذا عن حياتك الخاصة؟.

www.elromancia.com

سألته بجفاء:

- ماذا عنها؟.

وظلت تتجنب عينيه، باحثة عن طريقة تهرب بها من هذا الأسمر الطويل الواقف بقربها.

فقال متهكماً:

- حسناً، كنت أتساءل فقط عما إذا كنت سعيدة قانعة بحياتك، وعما إذا كنت متزوجة أم عزباء وهل تعيشين في الريف حتى الآن... أم لديك بيت هنا في لندن؟ لا شيء أكثر من هذا. إنها الأسئلة المعتادة المضجرة التي يلقيها عادة كل إنسان في ظرف كهذا.

- نعم، أنا سعيدة وعزباء وأعيش في لندن. والآن، إن لم يكن لديك مانع يجب أن أذهب و....

فقال وهو يقودها من ذراعها إلى مائدة منزوية رغم احتجاجها.

- آه، بل لديّ مانع فعلاً.

- لا... صدقني ما زال لدي عمل كثير و...

- يمكن للعمل أن ينتظر.

قال هذا بحزم وهو يجلسها على مقعد منخفض في تلك الزاوية التي يحجبها عن بقية القاعة ستار مخملي، ثم عاد يتابع حديثه دون أن ينتظر جوابها:

- كان كلانا منشغلاً فترة طويلة، وأشعر الآن أننا نستحق استراحة قصيرة، أليس كذلك؟ سأذهب لإحضار كوبين من العصير، ولكن إياك أن تهربي مني مرة أخرى!

لم تستطع، رغم ابتسامته الباردة، اغفال النبرة الخطرة المخيفة في صوته... فقد وقف يحدق إليها لحظة، قبل أن يستدير على عقبيه سائراً نحو القاعة ليبحث عن النادل.

عندما أخذت تنظر إلى قامة دومينيك الطويلة المسيطرة وهو يشق طريقه بسهولة بين الحشود، حاولت بيأس أن تسيطر على أفكارها ومشاعرها.

فمقابلة ذلك الرجل الذي عنى لها الكثير ذات يوم، والذي فارقته بشكل مفاجيء ومؤلم، لأمر لا يمكنها مواجهته.

وراحت تفكر في أن جلوسها هنا أمر سخيف... وكذلك الامتثال لأمره دون أن تجرؤ على الحركة، وكأنها طفلة شيطانة. شعرت فجأة بالضيق لضعفها هذا، ولكنّها أقرّت في نفسها متنهدة بأن لا فائدة من تجنب دومينيك، فما زالت هناك ساعات قبل انتهاء الحفلة، وهي ما عادت تستطيع مواصلة الهرب هنا وهناك في هذه القاعة لكي تتجنب هذا الرجل. وعليها أن تنهي تصرفها السخيف هذا.

وفي كل الأحوال، ستكون غبية إن جعلته يتكهن مدى الإحباط الذي شعرت به عندما انقطعت علاقتهما القصيرة الأمد. والواقع أنه لو كان لديها عقل ولم تُفاجأ بظهوره المباغت إلى جانبها منذ لحظات، لأمكنها أن ترفع رأسها وتخبره بأنها متزوجة وسعيدة بزواجها. أو لادّعت على الأقل، أن حياتها العاطفية حافلة مع سلسلة من العشاق الرائعين.

هيا... هيا... عليّ أن أتحكم بنفسي. فلم أعد مراهقة، بل سيدة أعمال ناجحة في الثامنة والعشرين من العمر وليس هناك ما يجعلني أحتمل أي هراء... وكانت تحدث نفسها بهذا عندما رأت دومينيك قادماً وهو يحمل كوبين من العصير.

لم يتغيّر البتة. أخذت تفكر في ذلك وقد تبدل مزاجها بطرفة عين من الحزم إلى التعاسة والتوتر، بعد أن أحست بذلك الألم الذي طالما اعتادت الشعور به كلما رأت هذا الرجل الجذاب.

لكن تخللت بالطبع خيوط فضية شعره الأسود عند صدغيه، كما أصبح وجهه أنحف بشكل ما، وملامحه أكثر رزانة من ذي قبل. وبدا شكله عموماً أكثر قوة واستبداداً. وعلى كل حال، ليس ذلك مدهشاً لأن دومينيك ورث عن أبيه منذ سنوات قليلة لقبه والقصر في إقليم «كنت»، وأربعين ألف دونماً من الأرض. ومع ميراث كهذا، يأتي ما يقتضيه المركز من فخامة وواجبات ومسؤوليات. رغم أنها لم تره شخصياً منذ عشر سنوات، إلا أنها

علمت ذلك من أعمدة الصحف والمجلات الاجتماعية اللامعة، فدومينيك الذي يعبث كثيراً، كان يقوم بعمل شاق أيضاً، فهو برأس عدداً من الشركات الكبرى بما في ذلك العمل بالزراعة. وقد عينته الملكة ممثلاً لها في إقليم «كنت». وعرفت من أبيها الذي يعيش في تلك الأنحاء، أن دومينيك أيضاً رئيس لعدة جمعيات خيرية.

ومع ذلك أدركت، عندما ناولها كوب العصير، أن مظهره الخارجي وإن تغيّر قليلاً في السنوات العشر الماضية، لم يؤثر البتة في تلك الهالة المتألقة التي تجذب الناس إليه غريزياً، ولا في هدوئه ورباطة جأشه اللذين يميزانه عن كل من عرفتهم يوماً.

قال وهو يجلس بجانبها على المقعد المستطيل.

ـ كيف حال اللورد «بيبوري» هذه الأيام؟ لم أره منذ سنوات.

ـ آه، أبي؟ إنه بخير.

قالت ذلك وهي تحاول الابتعاد عن هذا الشخص الطويل العريض الكتفين، الذي يكاد يلتصق بها، ثم أضافت:

ـ في الواقع... الواقع أن أحواله سيئة هذه الأيام.

قالت هذا وانصرف انتباهها قليلاً وهي تدرك أن تجنب الاحتكاك بدومينيك مضيعة للوقت... فالمقعد الذي يجلسان عليه مصمم للأقزام.

قال وقد التوت شفتاه تهكماً من هذه الفتاة الكارهة للجلوس بقربه.

ـ ما هي مشكلته؟ آسف لسماعي بهذا.

تنهدت وقالت: «مسكين أبي فقد تلقى ضربة قوية في كارثة «نادي لويدز».

ـ يا له من حظ عاثر!.

ـ هل خسر كثيراً من المال؟.

ـ كل شيء تقريباً. استطعنا أن نحتفظ بالبيت ولكن الأراضي كلها بيعت منذ فترة.

ـ وماذا فعلت زوجة أبيك؟ لا أظن أن باميلا كانت سعيدة جداً بذلك

الوضع؟

ـ لا. لم تكن كذلك.

وضحكت عابسة. فتلك المرأة النحيلة الشقراء التي استطاعت أن تصطاد والد أوليفيا بعد سنة واحدة من وفاة زوجته، حوّلت حياة أوليفيا جحيماً. وما إن رأت تلك المرأة الشريرة أن حياتها المريحة تنهار، وكذلك لقبها «اللايدي ذي مانور»، حتى سارعت إلى ترك زوجها. وتابعت بضحكة أخرى جافة:

ـ تركت أبي على الفور، وتزوجت بصناعي ثري يدعى «ريغ بلاملي»، وهي تطلق على نفسها لقب اللايدي بلاملي، عندما تظن أنه ليس هناك من يحاسبها.

أخذ دومينيك يضحك ثم قال:

ـ كانت امرأة فظيعة حقاً، أليس كذلك؟

ـ فظيعة للغاية.

وابتسمت له وهي تشعر بأن السنوات العشر الماضية قد تلاشت. كانت روح النكتة المشتركة بينهما، وإدراكهما النواحي السخيفة في الحياة، بالقوة نفسها. قال وهو يحيطها بذراعه ويجذبها إليه:

ـ ما أجمل أن أراك! لم تتغيري قط. لقد افتقدتك طوال السنوات الماضية.

لم تكن بحاجة إلى هذه النبرة الدافئة في صوته العميق أو إلى ذلك البريق في عينيه الرماديتين تحت جفنيهما الثقيلين لكي تأخذ جانب الحذر.

فما هي إلا لمسة من ذراعه حول كتفيها، حتى شعرت بالدوار. ولمّا أصبح على مقربة من وجهها، أخذ كل عصب في جسدها يتجاوب مع جاذبية هذا الرجل الخطر.

حاولت يائسة، التصدّي لتلك الهالة الماكرة التي لا تزال تحيط بشخصية دومينيك تماماً كما كانت منذ عشر سنوات، وأخذت تحاول بحزم تمالك نفسها.

ثم قالت بكل ما تملكه من حزم:

ـ أنت مخطىء جداً.

غير أنها كانت واعية لتلك الرجفة الخفيفة في صوتها وهي تقفز واقفة بسرعة.

ـ لأنني تغيّرت. فأنا الآن امرأة مختلفة كلياً عن تلك الفتاة الحمقاء، العديمة النضج التي عرفتها يوماً. صدّق أنها ماتت ودفنت منذ وقت طويل.

وابتسمت متجهمة الملامح:

ـ أما قولك السخيف ذاك بأنك افتقدتني فهو هراء لم أسمع بمثله قط!.

ناولته كوبها الذي لا يزال نصفه ملآن. وتابعت:

ـ لدي عينان ويمكنني أن أقرأ الصحف والمقالات التي تُكتب عن المجتمع، وبصراحة تامة يا دومينيك...

وأطلقت ضحكة قصيرة ساخرة:

ـ ... أقترح عليك أن توفر مثل هذا الكلام لفتاة صغيرة لم تنبت لها أضراس العقل بعد. والآن عن إذنك.

وسوّت بسرعة سترتها المخملية، ثم نفضت تنورتها.

ـ يجب أن أذهب لأتفقد تنظيم العشاء.

لم تعرف أوليڤيا قط كيف استطاعت أن تبتعد عنه شامخة الرأس، ثابتة الخطوات. ولكن ادراكها بأنها استطاعت تلقين دومينيك مثل هذا الدرس القاسي الذي يستحق، أشعرها بالسرور والرضا وخفف كثيراً من توتر مشاعرها.

قد تكون نادمة على الماضي، لكنها على الأقل وضعت خطاً تحت تلك العلاقة الحمقاء غير الناضجة التي حدثت بينهما منذ وقت طويل. ومحال أن يحاول متكبر متغطرس مثل دومينيك مرة أخرى استجلاب عطفها بكلامه المعسول.

ولما نظرت أوليڤيا خلفها، تملكتها الدهشة لأن دومينيك لم يبدُ البتة كئيباً ذليلاً، أو حتى غاضباً من هذه الصديقة القديمة التي صدّته، بل كان

ينظر إليها تبتعد عنه، وهو يرفع حاجبيه وعلى شفتيه ابتسامة تهكّم.

أخذ يتمتم:

ـ عجباً، عجباً... هذا شيء ممتع حقاً!.

ثم نهض واقفاً وناول النادل الكوبين. لقد رأى بوضوح أن تلك الفتاة الرقيقة الخجولة الصغيرة قد نبت لها الآن مخلبان قويان.

وكان الفضول يتملكه أيضاً ليرى في الساعات القليلة المقبلة إن كانت أوليڤيا قد تغيرت حقاً في السنوات العشر الماضية. وفي الواقع، بدا له واضحاً أن عدداً كبيراً من الرجال، المتزوجين والعازبين، قد افتتنوا بتلك الفتاة الطويلة الممشوقة الذهبية الشعر وهي تتنقل بثقة وهدوء بين الجموع، متفقدة راحتهم.

نعم... بدا له بوضوح أن تلك الفتاة الصغيرة الجميلة قد أصبحت الآن امرأة أنيقة رشيقة للغاية.

أما أوليڤيا التي كانت تبذل جهدها لتبدو هادئة باردة منضبطة، فكان الذعر يتملكها. فأين ترى العريس والعروس ذهبا؟

تبدّد كل تفكير في دومينيك من ذهنها في خضم البحث عن العروسين السعيدين في كل مكان، والله وحده يعلم إلى أين ذهبا. وبما أن عليهما افتتاح حلبة الرقص بعد خمس دقائق برقصة التانغو، فلا بد أن تعثر عليهما بأسرع ما تستطيع.

ـ آه، الحمد لله. ظننتكما قد ذهبتما إلى جزيرة «غريتا غرين»؟

كانت تتنفس الصعداء عندما رأت مارك وسارا خارجين من المصعد في الطابق الأرضي:

ـ أين كنتما؟

احمر وجه مارك وهو يسوّي من ربطة عنقه:

ـ حسناً، الأمر أن....

فقاطعته سارا وعيناها تضحكان:

ـ لقد قررنا أن نذهب لحظة إلى جناحنا المترف الرائع المخصص

للعرائس لنرى إن كان السرير مريحاً حقاً كما يبدو!.

لم تكن أوليڤيا قادرة على كبح ضحكتها وهي تسوّي من ثوب العروس وشعرها لكنها قالت لها:

ـ لكل شيء وقته، كما تعلمين!.

فقالت سارا برزانة قبل أن تنفجر بالضحك:

ـ هذا ما فكرنا فيه، نحن أيضاً.

قالت أوليڤيا ضاحكة:

ـ أنا مسرورة لقضائكما وقتاً ممتعاً. والآن، هل يمكنكما الذهاب إلى حلبة الرقص في أسرع وقت ممكن؟ الحقيقة يا مارك، أن حماتك تبدو وكأنها ستثير عاصفة.

تمتم مارك: «آه، رباه، شكراً لهذا التنبيه».

وقبض على يد سارا بسرعة ثم أسرعا معاً إلى حلبة الرقص.

قالت هي تطمئن السيدة «تورنبول» التي كانت منزعجة حقاً لغياب ابنتها المؤقت ذاك.

ـ لا شيء يستدعي القلق، فقد كانت سارا بحاجة إلى اجراء إصلاح صغير في ثوبها.

ولحسن الحظ، مرت بقية السهرة دون أي عائق، رغم أن أوليڤيا عجزت عن تجنب النظر إلى دومينيك الذي كان محاطاً دوماً بعدد كبير من النساء الجميلات للغاية. لكنها كانت تحدث نفسها بحزم بأنها تتمنى له حظاً سعيداً وأنها ليست مهتمة به بأي شكل... ولا بتلك الممثلة الشقراء الشابة التي كانت صورها تظهر بانتظام في المجلات الشعبية... والتي كانت متهافتة على دومينيك بشكل غريب وهما يرقصان مستمتعين في أواخر السهرة.

ثم، ما إن حلّ منتصف الليل، حتى دخل العروسان جناح العرائس، غير أن ساعة أخرى مضت قبل أن يقرر معظم الضيوف الشبان الانصراف، تاركين والدي العروسين السعداء يذهبون إلى أسرّتهم، وقالت

أوليڤيا في نفسها:

ـ حسناً، هذا عمل آخر نجحت في إنجازه.

ثم رافقت أواخر الضيوف إلى الباب، لتتركهم بين يدي بواب الفندق القديرتين، إما لتدبير تاكسي وإما لمرافقتهم إلى حيث أوقفوا سياراتهم.

بعد أن أحضرت قبعتها من غرفة المعاطف وشكرت المدير لما أسداه إليها من عون وخبرة، شعرت بأن بإمكانها الآن العودة إلى بيتها.

لم يكن العثور على تاكسي في «شارع بروك» أمراً صعباً في العادة، ولكن المدعوين الليلة استنفدوا جميع سيارات الأجرة الموجودة خارج الفندق، لسوء الحظ. وهكذا وقفت على الرصيف تضرب قدميها على الأرض التماساً للدفء، نادمة لأنها لم تأت بسيارتها، فلو حسبت حساب ذلك لجاءت بسيارتها وعادت بها.

ـ من المضحك ألا يجد الإنسان سيارة أجرة حين يكون بحاجة إليها، أليس كذلك يا آنسة؟.

قال البواب ذلك باسماً وهو يتقدم إلى وسط الشارع لينظر إلى بداية الشارع وآخره.

ـ ومع ذلك، أنا واثق من أن سيارة أجرة ستأتي في غضون دقائق.

فقالت وهي تشد جانبي سترتها حولها:

ـ أرجو ذلك. الحمد لله أن الطقس صاح.

ولكن أسنانها راحت تصطك عندما اكتسحت الشارع موجة ريح ثلجية.

ـ هل تنتظرين سيارة، أيتها السيدة؟

ـ نعم، و...

واتسعت عيناها وهي ترى سيارة «رانج روڤر» زرقاء كبيرة تقف أمام جسمها المرتعش برداً.

وقال لها دومينيك بابتسامة عريضة:

ـ الأفضل أن تسرعي وتقفزي إلى الداخل، إلا إذا كنت تفضّلين

التجمّد هنا حتى الموت.

ـ حسناً...

نظرت أوليڤيا إلى أول الشارع الخالي، وآخره، فلم تجد أي أثر لسيارة أجرة، فقالت توافق بعجز وهي تسير إلى باب السيارة:

ـ لابأس، ولكنك لا تعرف أين أسكن، وقد لا يكون منزلي في اتجاه طريقك إلى بيتك.

ـ بإمكاني العثور على الطريق أينما كان.

وابتسم لها مرة أخرى. وعندما رآها على ترددها، قال لها بفظاظة:

ـ قد تقفين ساعة هنا تنتظرين، وإذا كنت تودّين أن تصابي بذات الرئة، فهذه مشكلتك أنت.

شكرته بتذمر قبل أن تقرّ أنه محق إذ لم يكن هناك لأي سيارة. وفكرة وقوفها على الرصيف حيث قد تموت برداً في هذا الطقس، كانت أكثر مما تستطيع احتماله.

وقالت وهي تصعد إلى السيارة:

ـ أنا أسكن في «هولند بارك». أرجو ألا يكون بعيداً كثيراً عن اتجاهك. هل ستعود إلى بيتك في إقليم «كنت» الليلة؟.

سألته ذلك لاهثة، مع أنها ما زالت رافضة فكرة أن يوصلها دومينيك، ولكنها لم تجد بديلاً آخر.

أجابها وقد انطلق بالسيارة.

ـ لا. لدي شقة صغيرة في «تشيلسي» اعتدنا، أنا وشقيقتاي، أن ننزل فيها كلما أتينا إلى لندن.

كان ينبغي أن تكون المسافة إلى بيتها قصيرة سهلة لأن الشوارع تخلو في هذا الوقت المتأخر من الليل، غير أن أوليڤيا وجدتها طويلة جداً، فبينما كانت السيارة تجتاز الشوارع المختلفة، احست أن الجوّ مخيف في هذه السيارة الضخمة، مع أن ما من سبب يدفعها للشعور بالتوجس وتوتر الأعصاب.

رغم ذلك، صعُب عليها أن تكافح هذا الجوّ الغريب الماكر الخفي المحصور داخل السيارة. وحتى بعد أن سلخت نظرتها عن منظر يديه القويتين على عجلة القيادة، وأغمضت عينيها وأرخت رأسها إلى الخلف، شعرت بأن حواسها كلها ما زالت يقظة بشكل مزعج، ولكم كانت واعية إلى رائحة العطر الذي عبق في خياشيمها، ولكم كانت شاعرة بحركات جسمه الطويل القوي.

ـ الأفضل أن توجّهي سيري من هنا فصاعداً.

قال هذا بسرعة وهما يسلكان شارع «نوتينغ هيل غيت» ويدخلان شارع «هولند بارك».

ما إن طلبت منه أن يستدير حول المنعطف التالي في «هولند بارك»، حتى تملكتها الدهشة حين وجدت الطريق مسدوداً بحاجز يحوّل السير بأضواء متوهجة وقربه سيارتا شرطة.

ضغط دومينيك زراً ليفتح زجاج نافذته حين اقترب منهما الشرطي.

ـ آسف يا سيدي. لدينا مشكلة بسيطة هنا، فأنبوب المياه الرئيسي قد انفجر. و...

فتأوهت أوليڤيا.

ـ آه، لقد حدث هذا مرة أخرى!.

فهز الشرطي كتفيه.

ـ نعم، آسف لذلك يا آنسة! أخبرني شخص من الدفاع المدني بأن المشاكل غالباً ما تقع في هذا الشارع. وعلمت أيضاً بأنهم سيستبدلون أنابيب المياه بأخرى جديدة في المستقبل القريب.

قالت ساخرة متذمرة:

ـ سيكون ذلك يوماً مشهوداً.

سأله دومينيك:

ـ كم سيأخذ إصلاحه من الوقت؟

هز الشرطي كتفيه:

ـ قالوا إن لا منفذ إلى أي من طرفي الأنبوب قبل أربع ساعات على الأقل، ولن يدهشني إذا طال الوقت أكثر من ذلك بكثير.

ـ لابأس، شكراً.

أغلق دومينيك زجاج نافذته وعاد بسيارته إلى الخلف بسرعة متجهاً نحو شارع «هولند بارك».

ـ ما الذي تفعله؟ إلى أين تذهب؟.

صرخت بذلك مذهولة لتسارع الأحداث، محاولة بيأس أن تفكر أين يمكن أن تمضي ليلتها. فأجاب:

ـ لديّ غرفة نوم احتياطية، وبهذا يمكنك قضاء الليل في بيتي... إلاّ إذا كنت تفضلين الذهاب إلى فندق.

استدارت تحملق فيه في الظلام، وقالت متذمرة ساخرة:

ـ آه، نعم! إنها فكرة عظيمة. أولاً عليّ أن أجد فندقاً ما تزال أبوابه مفتوحة في مثل هذا الوقت من الليل، وإن كنت محظوظة ووجدت واحداً فقد يرفضون استقبالي دون أمتعة.

فهز دومينيك كتفيه:

ـ هذا عائد إليك، طبعاً... مع أنه ليس لديك خيارات كثيرة.

تنهدت وقالت: «هذا صحيح. معك حق».

غير أنه في الوقت الذي أوقف فيه دومينيك سيارته في ساحة «ماركام»، كانت أوليڤيا قد تغلبت على غضبها وانزعاجها الغريزي لأنها أصبحت تحت رحمة هذا المستبد.

ـ آسفة. عليّ أن أعتذر لسوء طبعي هذا. وأظن أن الإرهاق ولهفتي للعودة إلى بيتي حيث أرفع قدميّ على وسادة، هما السبب، ولكن ما كان ينبغي لي أن أتعبك معي.

والتفتت إليه بابتسامة اعتذار.

ـ وأنا أشكرك لاستضافتك في بيتك.

ـ لا حاجة بك للاعتذار، لأن كلينا أمضى يوماً متعباً.

وعندما فك الحزام من حوله وفتح باب السيارة ليخرج، قالت فجأة:

ـ انتظر لحظة. (غرفتك الاحتياطية) تلك، موجودة فعلاً وليست من وحي مخيلتك، أليس كذلك؟

قال ساخراً:

ـ لا تخافي. لدي ثلاث غرف احتياطية، يمكنك اختيار التي تعجبك.

ودار حول السيارة ليفتح لها الباب ثم أردف: «... رغم أنني سأكون أكثر من سعيد إذا قدمت لك غرفتي الخاصة لتستعمليها».

ـ إذا كنت أنت فيها، فأنا أشكرك. غير ممكن.

قالت هذا بحدة دون أن تتأثر بابتسامته العريضة وعينيه الساخرتين.

ساعدها على النزول، مشيراً إلى باب منزل كبير، ثم قال بوجه متجهم وهو يسير بها إلى غرفة الجلوس.

ـ إهدئي يا عزيزتي. أقسم بشرفي ألا أضع يداً عليك.

ـ الأفضل أن تحفظ كلمة الشرف هذه، وإلا ستأسف لذلك.

أخذت تدير نظراتها في أنحاء القاعة الفسيحة الأنيقة.

ـ هذا البيت الضخم يساوي الملايين.

ومع ذلك وصف بيته الكبير هذا بـ «الشقة الصغيرة في تشيلسي».

ابتسم ابتسامة بطيئة مغرية وقال لها:

ـ والآن، لِمَ لا نرتاح قليلاً ونشرب شيئاً. يمكنني أن أقدم إليك عصيراً أو...

لكن أوليڤيا هزت رأسها متوترة:

ـ لا شكراً، فأنا متعبة حقاً. كان يوماً شاقاً. وإذا لم يكن لديك مانع، أودّ أن أصعد الآن إلى غرفتي.

ـ طبعاً.

وأشار إليها أن تتقدمه على السلم العريض إلى الطابق الأعلى حيث فتح لها باب غرفة ضيوف فسيحة، ثم دخل ليفتح باباً صغيراً في آخرها:

ـ وهذا، كما ترين، الحمام الخاص. دعيني أتفحصه.

وأخذ ينظر في أنحاء الحمام:

ـ نعم، المناشف كافية، ولكن أعلميني إذا كنت تريدين شيئاً آخر.

وابتسم لها وهو يخرج من الغرفة.

ارتاحت أوليڤيا لأن الأحوال كان يمكن أن تكون أسوأ.. وتنهدت مسرورة، فها هي تستلقي في مياه الحوض الدافئة المعطرة، وتغمض عينيها لتدع كل تعب النهار يتلاشى من جسدها المرهف.

وشعرت بالامتنان لدومينيك لأنه وضع غرفة تحت تصرفها، وإن كان هذا لا يعني أنه ليس ذلك الجرذ المحتال الخائن المنكر للحقيقة الذي عرفته منذ سنوات، طبعاً. فالنمور لا تغير جلودها. والتصاق تلك الشقراء بجسمه الطويل العريض الكتفين في حلبة الرقص لا يمكن أن يوصف بأقل من (مشين).

ولكن ماذا يهمها من ذلك؟ لقد مضت سنوات منذ وقعت في غرام دومينيك. لكنها لم تعد تلك المراهقة الحمقاء. وإذا أراد أن يستعرض نفسه أمام الناس، أو يقيم علاقات مع نصف نساء لندن، فهذا شيء لا يعنيها.

حسناً، نعم... لا بأس... لقد ساءها أن تراه مرة أخرى.

ولكن ذلك كان فقط لأنها لم تكن تتوقع رؤيته. وأي امرأة أخرى ستشعر بالشيء نفسه عندما ترى فجأة حبيباً قديماً. وأخذت تطمئن نفسها بحزم بأن ردة فعلها كانت طبيعية.

وبعد ليلة مريحة، ستكون قادرة تماماً على أن تودعه ببشاشة قبل أن تذهب إلى بيتها وتنساه إلى الأبد.

بعد أن فسرت الوضع حسب رغبتها، ارتفعت معنوياتها، وكان للحمام المريح الدافىء المعطر دور في ذلك. خرجت من الحوض ولفت منشفة كبيرة حول جسدها الرشيق، لكنها لم تدرك أن لديها مشكلة صغيرة إلا بعد أن سارت إلى سريرها.

رغم أن كثيرات من صديقاتها ينمن عاريات، إلا أنها لم تكن تحب البتة

الاستلقاء عارية على سرير بارد. وما دامت أخطأت في غسل ملابسها الداخلية وتعليقها في الحمام لكي تجدها جافة في الصباح، فقد وجدت نفسها الآن دون رداء. وبينما أخذت تتساءل عما إذا كان يمكنها أن تلف منشفة جافة حولها بدلاً من قميص النوم، إذا بالباب يُقرع، وصوت دومينيك يكلمها من من خلفه هازلاً:

ـ هل نمت في الحمام؟ هل تريدين قميص نوم؟

ترددت لحظة، ثم أحكمت لفّ المنشفة حولها قبل أن تفتح الباب.

ـ نعم، أريد ذلك.

أجابته، وقد لاحظت من بلل شعره أنه استحم هو أيضاً، وبدلاً من بذلة الحفلة الأنيقة كان يرتدي رداءً عنّابي اللون يصل إلى ركبتيه. تقدم إلى الخزانة وفتح بابها:

ـ يوجد قميص نوم هنا.

قال ذلك وهو يخرج قميصاً حريرياً طويلاً ناولها إياه:

ـ كما أن هناك أيضاً اثنين أو ثلاثة غيره، لكنني سأتركك لتختاري.

ـ هذا لطف بالغ منك، لكنني حقاً لا أظن...

ـ لا تنزعجي.. إنها ليست قمصاناً من مخلفات صديقات قديمات.

وابتسم لها ضاحكاً بسرعة قبل أن يغلق الخزانة:

ـ قدمت أختي الكبرى «كوني» من أميركا السنة الماضية. وعندما عادت إلى بيتها، تركت بعض ملابسها هنا.

قالت أوليڤيا:

ـ آه، حسناً.

شعرت ببعض الارتباك لقدرته الفائقة على قراءة أفكارها. لأنها طبعاً، ما كانت لتستطيع ارتداء شيء من ملابس تركتها إحدى صديقاته... وكثيرات منهن، حسب قول تلك المجلات البراقة، ممثلات جذابات.

سألها وهو يتقدم نحوها ببطء:

ـ أتريدين شيئاً آخر؟

ـ لا . هذا يكفي .

بعدما قالت ذلك، ابتعدت عنه غريزياً، فقد شعرت إزاء طوله الفارع وكتفيه العريضتين وصدره القوي وكأنما هاجمت حواسها هالته الرجولية المفرطة في قوتها .

وتمتمت بعجز وهي تبلل شفتيها اللتين جفّتا فجأة :

ـ أصبح لدي كل شيء . أنا . . . أنا واثقة من أنك متعب مثلي . . .

وتلاشى صوتها وهي ترى عينيه تلمعان تهكّماً من اضطرابها الواضح .

ـ هل أنت واثقة تماماً من أنك حصلت على كل ما تريدين؟

قال ذلك ببطء ورقة، ونبرة الإغواء في صوته تعبث بأعصابها، ونبضها يتسارع .

تراجعت خطوة إلى الوراء وعندما شعرت بظهرها يصطدم بالجدار بجانب الباب، أخذت تجاهد للسيطرة على نفسها .

ـ أنا لا أحب القيام بألاعيب حمقاء، فهل لك أن تغادر هذه الغرفة وتعود إلى غرفتك من فضلك؟

قالت ذلك بقدر ما تستطيعه من حزم، وقد تملكتها المرارة للبحة التي بدت في صوتها .

فقال وهو يستمر في التقدم نحوها حتى كاد يلتصق بها :

ـ سأغادر طبعاً، إنما كل ما أريده هو أن أحييك تحية المساء .

عندما شعرت بجسمه الصلب يضغطها على الجدار، قالت محتجة :

ـ إياك . . . يا دومينيك . ظننتك وعدتني بألاّ تلقي يداً عليّ .

قال ذلك وهو يضحك بصوت منخفض :

ـ أنت على حق .

ثم وضع راحتيه على الجدار من ناحيتي رأسها .

ـ وأنا أنوي تماماً الوفاء بوعدي .

ثم قبل جبينها وهمس :

ـ تصبحين على خير، يا أوليڤيا .

شعرت بنفسها واهنة ترتجف ورأت في عينيه اللامعتين رسالة غريبة وهما تتفرسان فيها، كما كانت هنالك توتر غريب في ملامحه الوسيمة . ولكن ما إن تمكنت من استجماع شتات كيانها، عقلاً وجسماً، حتى أدركت أنها كانت مخطئة لأنه كان الآن ينظر إليها بشكل طبيعي تماماً، وعلى فمه ابتسامة خفيفة .

تمتم : «سأراك في الصباح» .

ثم مرّر اصبعه على خدّها الناعم، وغادر الغرفة بسرعة .

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ صيف بلا ظل

بالرغم من تعبها والإنهاك الذي تملّكها بسبب وقوفها على قدميها طوال النهار، وجدت أوليڤيا نفسها تتقلب في السرير وهي تحدّق في سقف غرفة الضيوف في بيت دومينيك.

لم يكن من سبب واضح لأرقها هذا، ليس فقط لأن السرير مريح للغاية، بل لأنها استمتعت تماماً بذلك الحمام الدافىء المترف، وهذان شيئان يضمنان لأي إنسان النوم المريح. لكن أوليڤيا ما لبثت أن أدركت أنه لم يعد ثمة فائدة في خداع نفسها أكثر من ذلك. لأن اقتراب دومينيك منها هذه الليلة تركها تشعر لا بالدوار فقط، بل بالتشتت أيضاً لأنها حتى هذه اللحظة لا تزال تشعر بجسدها يرتعش وينبض حياة، وحواسها تتألم بمزيج من الشوق والإحباط.

شعرت بالخزي لأنها لم تبد أي احتجاج أو شبه مقاومة للابتعاد عنه... وشعرت بوجنتيها تحترقان في الظلام. لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر الدفء الذي كان ينبعث منه.

لقد شعرت حينذاك، أن ما تحسه مماثل تماماً لما يحسه هو نحوها.

لذا لا عجب أن يجافيها النوم طوال الساعات الماضية. لأن دومينيك وتأثيره المشؤوم في مشاعرها التي طال خمودها، هو وراء مشكلتها هذه.

وما لبثت أن أذعنت أخيراً وتخلت عن المقاومة، فألقت بالغطاء عنها ونهضت عن السرير، وتوجهت نحو النافذة الواسعة، فأزاحت ستائرها

السميكة لتسمح لضوء القمر المتألق بدخول الغرفة.

وجدت نفسها تحدق إلى الحديقة المنظمة المختلفة كلياً عن تلك التلال والوديان في أرياف إقليم «كنت»، حيث أمضت مع صاحب هذا البيت الفسيح فترة صباها.

صحيح أن عشر سنوات مضت لم تر أثناءها دومينيك، لكنها عرفته في الحقيقة طوال حياتها. وبما أن الفاصل الوحيد بين أرض أسرتها ومزارع «شارلبري» والقصر النورماندي الفخم العتيق هو جدول صغير، فلم يكن غريباً أن تنشأ بين أبيها اللورد «بيبوري» وجاره العجوز «إيرل تنتردن»، صداقة عمر.

كان ذلك طبعاً في الأيام الطيبة الماضية، عندما كانت أمها على قيد الحياة، وقبل أن يخسر أبوها كل ما يملكه.

في فترة الطفولة والحداثة السعيدة تلك، كانت صداقة عفوية تجمع بين أوليڤيا وأخوها الأكبر هيغو، وبين أولاد «فيتز تشارلز» الثلاثة «بلانش» و «كونستانس» وأخوهما الأصغر دومينيك.

لا تذكر أوليڤيا بالضبط متى وقعت في غرام «دومينيك فيتز تشارلز» بكل ذلك العنف والحماقة. هل كان ذلك أثناء قضائهم فصل الصيف في ركوب الخيل على أراضي المزرعة، أم أثناء عيد الميلاد حيث كانوا يجتمعون مع أولاد الأسر المحلية الآخرين في حفلات العيد التقليدية في القصر العتيق.

لم يكن هذا يعني أنه لاحظها قط، بالطبع. ولماذا يلاحظها بالذات وهي تصغره بخمس سنوات؟ كان ثمة هوة سحيقة بينها، هي الخجول ابنة الثالثة عشرة عاماً، وبينه، هو الفتى الوسيم العنيف ذي الثامنة عشرة الذي كان يجول في الأرياف بسيارته الرياضية السريعة، محطماً قلوب كثيرات من الفتيات الجميلات.

وإذا بحياة أوليڤيا تتغير بشكل مأساوي بعد موت أمها وهي في الرابعة عشرة، فقد تزوج أبوها بـ «باميلا» بعد عام واحد من وفاة زوجته الأولى. فكان من هذا الزواج أن دمّر أوليڤيا وأخاها هيغو، خصوصاً أن زوجة أبيها

لم تضع وقتاً، إذ أرسلت أوليڤيا إلى مدرسة داخلية متزمتة، ما أشعر الفتاة بالبؤس والتعاسة المرة، وفي العمر الذي تعقد فيه الفتيات الصداقات مع بعضهن البعض، أصبحت هي تعسة للغاية.

وسرعان ما أصبحت مراهقة، ثائرة صعبة المراس. وكأنها قد صممت على التسبب بالإزعاج قدر ما تستطيعه. والواقع أن حياتها في المدرسة كانت صعبة ولكن حياتها في البيت أثناء الإجازات، لم تكن أفضل بكثير.

كان أبوها، وهو الرجل الساحر إنما الضعيف الشخصية، قد سمح لنفسه بأن يكون محكوماً لزوجته التي أسمتها أوليڤيا بصراحة (زوجة الأب الشريرة).

لعلها ظلمت زوجة أبيها: لكن تاريخ المرأة أثبت فيما بعد أنها كانت محقة في كرهها وعدم ثقتها.

هذا إلى أن أوليڤيا كانت ترفض أن يخالفها أحد في الرأي، فأخذت تحارب زوجة أبيها في كل خطوة، حتى أصبح بيتها السعيد الآمن ساحة للقتال والكراهية.

الآن تعلم أوليڤيا أنها كانت أسعد حظاً من كثير من الأولاد الذين نشؤوا في بيئة المدينة. كان بإمكانها أن تهرب على الأقل من حياة بيتها التعيسة بالاختباء في مخازن الغلال في المزرعة شتاءً، وصيفاً لم يكن عليها سوى أخذ علبة عصير وبعض الشطائر ثم سرج حصانها «روفوس»، لتمضي نهارها هائمة في البراري.

في الصيف الذي سبق بلوغها الثامنة عشرة، غالباً ما كانت ترى دومينيك فيتز تشارلز ممتطياً حصانه وهو يجول في مزرعته الواسعة التي ورثها بعد موت والده في العام السابق.

كانت الشائعات والأقاويل مترعة بالقصص عن حياة دومينيك الحافلة بطيش الشباب ولهوه، سواء في البلدة نفسها أم في الجامعة حيث كان يدرس الهندسة الزراعية، ويتعلم آخر أساليب الزراعة الحديثة واصلاح الأراضي. وفي الواقع، كان صيته المتعلق بطيش الشباب العنيف، وبتأثيره المهلك في

قلوب الفتيات الصغيرات، هو ما زاد في جاذبيته.

وبسبب صراعها الدائم المرّ مع زوجة أبيها، وحاجتها إلى الحب والحنان، لم يكن غريباً أن تنسب إلى دومينيك كل صفات أبطال الروايات الخرافية.

وأمضت ساعات طويلة وهي تحلم كيف ستنقذه بشكل ما، من حياة الإثم والإسراف، ليكافئها بعد ذلك بقبلة طاهرة على جبينها، ثم يطلب يدها للزواج وعندئذٍ ستبتسم شامتة بياميلا، زوجة أبيها، التي ستستشيط غضباً لأن ابنة زوجها قد أصبحت «كونتيسة».

ربما لو كان بإمكان أبيها أن يفكر في شيء آخر عدا مشاكله المالية، لاهتم أكثر بحياة ابنته. لكنه، لسوء الحظ، تركها وشأنها، وهكذا استمرت أوليڤيا في نسج تصوراتها الشاعرية عن دومينيك، وعبادته من بعيد. لكنها، طبعاً، لم تستطع مقاومة اختلاق مصادفات معه. حتى الآن، تشعر بالغثيان عندما تتذكر كم كانت تلك المواقف محرجة بالنسبة إليه وهو يرى مراهقة تقتفي خطواته، وتتشبث بكل كلمة يقولها.

ولكن الحق يقال إنّ دومينيك لم يُبدِ أي انزعاج منها. والحقيقة أنهما في ذلك الصيف، أخذا يتقابلان باكراً كل صباح، فترافقه على حصانها البوني فيما يقوم بتفقد مزرعته.

وكانت أوليڤيا، طبعاً، في أوج السعادة. لكنها كانت صغيرة وتجهل تماماً تعقيدات الطبيعة البشرية. وتبعاً لاستغراقها الكلي في أحاسيسها الخاصة، ومشاعرها نحو بطلها الأسمر الجذاب، كان يبدو لها غالباً الآن، أنها كانت تعيش في عالم ضبابي وردي من التصورات وأحلام اليقظة يبعد عن الواقع عشرات السنوات الضوئية.

وهكذا اعتادت على أن يعاملها دومينيك بنوع من اللطف وكأنها أخته الصغرى، ما جعلها هانئة جاهلة بحقائق الحياة. إذ لم يخطر ببالها قط أنه قد ينجذب إلى فتاة خجول طويلة الشعر، قد نضج جسمها فأسبغ عليها جاذبية الشباب النابض.

ومع ذلك، ما كان سيحدث شيء لو أن دومينيك لم يقفز ذات يوم بعد

جولة طويلة عن ظهر جواده ليتفحص بوابة قديمة في زاوية من الحقل كانت بحاجة إلى اصلاح.

ـ الأفضل أن أصلح هذه في أسرع وقت ممكن.

ناداها قائلاً ذلك، فأقبلت على حصانها لتنضم إليه، وهي لا تزال تلهث لمحاولتها مجاراة حصانه الكبير. أوقفت حصانها، ثم قفزت إلى الأرض. عند ذلك، تحرك دومينيك غريزياً وبسط يديه ليتلقاها، فانزلق قدّها النحيف ببطء على جسمه الطويل الصلب.

احمرّ وجهها وهي ترى نفسها ملتصقة ببطلها الوسيم، وتسمّرت نظراتها على صدره العريض. وفجأة، تملكها شعور غير عادي هو مزيج من الخوف الإثارة. وإذ سحقها إدراكها المفاجيء لقوة جاذبيته، انتبهت إلى ذراعيه تطوقانها وهي تحدق في عينيه الرماديتين اللتين أخذتا الآن تنظران إليها بعزم.

ـ يا أوليڤيا الحلوة...

تمتم بذلك بنعومة وهو يحني رأسه يعانقها برقة بالغة جعلتها تشعر بما يشبه الاغماء من البهجة والمتعة.

وعن غير وعي منها، رفعت ذراعيها النحيفتين تحيط بهما عنقه، مستسلمة إلى بهجة تجربة أول عناق حقيقي، واحتضنته بشدة، مرتجفة شاعرة بالسعادة. وخرجت مشاعرها عن السيطرة كلياً تحت قوة وعنف عناقه المتملك.

أخذت ترتجف بين يديه، لكنها ما لبثت أن أجفلت عندما ابتعد عنها فجأة، وهو يشتم بعنف بصوت خافت ثم يدفعها بعيداً عنه.

كان يتنهد، ويتخلل شعره بأصابعه، قبل أن يوضح لتلك الفتاة المضطربة بأنه لا يجدر بهما أن لا يسمحا لنفسيهما مجدداً بأن ينجرفا بهذا الشكل.

ـ ما زلت في السابعة عشرة، بحق الله... وبريئة تماماً.

ـ لكنني سأبلغ الثامنة عشرة بعد شهر.

ـ نعم، أعلم هذا جيداً، لسوء الحظ.

قال هذا بضحكة عابسة:

ـ لكنك ما تزالين أصغر من أن تعانقي الفتيان.

صاحت تقول:

ـ لكنني لا أريد أن أعانق أي شخص آخر، بل أنت فقط!

ثم ألقت بذراعيها النحيلتين حوله، غير مبالية بما قال، دافنة وجهها في إبطه.

ـ وأنت الآن لا تريد أن تراني مرة أخرى...

ثم انفجرت في عاصفة من البكاء.

قال برقة وهو يمسح دموعها:

ـ كلام فارغ.

وأخذ يؤكد لها أن ما أشار إليه بأنه (سوء حظ) لن يؤثر في صداقتهما بأي شيء.

ومع أن دومينيك حرص على ألا يلمسها، إلا أنه أصبح واضحاً أن الأمور لن تعود بينهما كما كانت. لأن أوليڤيا، أصبحت تجد نفسها معقودة اللسان بشكل غريب في وجوده، كما بدا أنه هو أيضاً قد فقد لامبالاته العادية بالنسبة إليها. وفي الأسابيع القليلة التي تلت، أبقاها بعيدة عنه، فكان يعاملها بأدب وبرودة وجدتهما مؤلمين مخيفين للغاية..

ثم قدم موسم الحصاد، وقلّت لقاءاتهما بسبب حاجة دومينيك إلى ملازمة مدير مزرعته لحل مشاكل الزراعة والمستأجرين. ثم تناقصت تدريجياً، مع اقتراب فصل الخريف، إلى أن اقتصرت أخيراً على تلويح بسيط باليد كلما مرّ بها في سيارته أثناء تجواله في أراضيه.

كان من الممكن أن ينتهي أمرهما عند هذا الحد، لو لم تقرر الانضمام إلى مطاردات الصيد المحلية بعد عودتهما في عطلة الشتاء... يومذاك خاب أملها كثيراً، لأن حصانها «روفوس» أخذ يعرج بعد أول عدو له على الأرض المتجمدة.

www.elromancia.com

نزلت عن ظهر حصانها وقررت أن تريحه قدر الإمكان. ثم عادت به إلى البيت ببطء، متمنية لو أن أخاها كان موجوداً ليساعدها. لكنه تجنباً لزوجة أبيه، كان يزور أصدقاء له في اسكوتلندا... وتملكها الحزن وهي تفكر في مسافة الأميال الخمسة الطويلة إلى البيت، وإذا بالدهشة تتملكها عندما وقفت بجانبها شاحنة كبيرة لنقل الخيول.

ـ مرحباً... ما المشكلة؟.

وكان هذا دومينيك يناديها وهو يقفز من العربة.

ـ لقد كان «روفوس» يعرج. وربما ما كان لي أن أخرجه من البلدة بعد غياب طويل لم أمرنه فيه.. أظن أن العدو السريع كان صعباً عليه.

ـ لدي هاتف خليوي في العربة. أتودّين أن أتصل بأبيك، فيأتي ليقلّك؟.

هزت رأسها قائلة بأن أباها وزوجته في لندن.

ـ حسناً...

وانحنى دومينيك يلامس قائمة الحصان العرجاء.

ـ قد تسوء الإصابة. الأفضل أن تضعي روفوس بجانب حصاني في الشاحنة لأقلكما معاً إلى البيت.

خافت أن تعيقه عن استمتاعه بالصيد مع الآخرين، لكن دومينيك أوضح لها أن حصانه قد فقد أحد نعاله وأنه قرر الانسحاب من الصيد بسبب صلابة الأرض وتجمدها.

قبلت أوليڤيا عرضه هذا بلهفة، ممتنّة لأنه وفّر عليها عناء هذه الرحلة الطويلة إلى بيتها. وبعد أن وضعت حصانها في الشاحنة، قفزت إلى المقعد الذي بجانب دومينيك، وأخذت تثرثر بسعادة في طريق الرحلة القصيرة إلى بيتها.

إلى هذا الحين، بدا لها وكأن صداقتهما قد عادت. ولكن عندما ساعدها على اخراج حصانها من الشاحنة إلى الإصطبل، بدأت فجأة تشعر بالعقاد لسانها وتوتر أعصابها، ولم تستطع أن تحرّك أصابعها لتنزل السرج.

ـ دعيني أفعل ذلك.

وضحك ثم طلب منها أن تذهب وتحضر بعض التبن.

قالت متلعثمة:

ـ نـ... نعم.

ثم هرعت خارجة من الإصطبل إلى المخزن الكبير القريب، وإذا بها تغوص في كومة ضخمة من التبن بينما كانت تحاول السيطرة على نفسها وعدم التفكير به. ومع أنه كان يرتدي ملابس الصيد العادية، فقد جعلها منظر دومينيك ترتجف وتشعر بالضعف. بدا رائعاً وأنيقاً حقاً بجزمته الطويلة السوداء وبنطلون الركوب الضيق التبني اللون والشال الأبيض حول عنقه، والسترة الوردية التقليدية الملقاة على كتفيه.

حاولت جاهدة أن تصرفه من ذهنها في الأشهر الثلاثة الماضية، لذا صدمها أن تشعر بموجة من الشوق تكتسح فجأة كيانها وتجعلها ترتجف.

ـ أهذا أنت؟ كنت أتساءل إلى أين ذهبت.

أجفلها صوت دومينيك المفاجيء الذي كان يدخل المخزن، فهبّت واقفة وهي تقول متلعثمة:

ـ أنا... أنا آسفة... لا بد أنني كنت مستغرقة في أحلام التفكير...

وأخذت تتراجع بسرعة عنه:

ـ لا أدري لماذا... أوه!.

وصدرت عنها صرخة حادة عندما تعثرت ووقعت على ظهرها فوق كومة التبن.

بقيت مستلقية لحظة مقطوعة الأنفاس ووجها يتوهج خجلاً لظهورها بمثل هذه الحماقة، أمام مثلها الأعلى. ولكم شعرت بالراحة لأنه لم يفعل سوى الضحك عليها والتقدّم منها مادّاً يده يساعدها على الوقوف:

ـ يا للغبية المعتوهة!

قال ذلك وهو يحيط جسدها المرتجف بذراعه وينفض التبن عن شعرها

الذي هبط على كتفيها بفوضى بالغة بعد أن سقطت منه الدبابيس.

ـ لطالما كان هذا اللون يجنّني.

تمتم ذلك برقة وهو يداعب بأصابعه الخصلات الحريرية الطويلة، وفي صوته بحّة أرسلت رجفة في كيانها بينما راحت ذراعه التي حول خصرها تشدّها إليه.

بدا وكأن الزمن توقف. وكان في أذنيها قرع غريب وهي تحدق إليه.

تسمّرت نظراتها على وجهه الذي أصبح قريبا من وجهها إلى حد جعلها ترى أهدابه السوداء الكثيفة والتوهج الخفيف على وجنتيه، بينما عبقت رائحة عطرة في خياشيمها. وهمس فجأة:

ـ حاولت أن أصرفك من ذهني، ولكن يبدو أنني لم أنجح، أليس كذلك؟.

لا بد أنها كانت تتخيّل ضربات قلبه تتجاوب مع ضربات قلبها وهي تبادله النظر بعجز، شاعرة وكأنها منوّمة مغناطيسياً إزاء ذلك اللمعان في عينيه الرماديتين...

على الرغم من محاولاتها العديدة في السنوات العشر الماضية، لم تستطع أن تخفي عن نفسها قوة انجذابها نحوه وقتها.

خرجت حواسها عن السيطرة وأخذت تتأوه وهو يحتضنها بشدة معانقاً إياها بشغف كبير كادا يضيعان فيه.

عندما تفهمت الأمر بعد بسنوات، وجدت أن دومينيك أبدى في عناقاته يومذاك قدراً لا بأس به من التحكم وجعلها عناقه تشعر بسعادة بالغة وأحست بأنها مستعدة لوهبه قلبها وروحها.

هل من الممكن أن يكون تجاوبها معه هو الذي سحق كل وخز للضمير قد تشعر به؟ حتماً كان كلاهما يشعر بالشوق واللهفة نفسهما وكانت مشاعر الحب تتفجر بينهما في كل مرة يلتقيان فيها في الأسبوعين التاليين.

لكن بعد أن أقيمت الحفلة التقليدية عقب عيد الميلاد في قصر «شارلبري»... انفصلا...

لم تكن، في الحقيقة، تريد الذهاب إلى الحفلة على الإطلاق. كانت غارقة في حب دومينيك وتعيش فقط من أجل الالتقاء به والتحدث إليه. ولكم كانت تكره الوقت الذي كان يفصل بينهما. ولهذا، كانت تكره حضور مثل هذه المناسبات الرسمية وتخافها، لا سيّما عندما تكون تحت ناظري أمّه اللذين يقدحان شرراً.

كانت أوغستا، «كونتيسة تنتردن»، والدة دومينيك، نحيفة متسلطة في طباعها... مخيفة متغطرسة، لا تصفح عمن يستغفلها. وكان يعرفها ويخافها أهالي المنطقة كلّها أمّا نقطة ضعفها الوحيدة فهو ابنها دومينيك الذي أنجبته بعد تجاوزها الأربعين من عمرها وبعد يأسها من ألا تنجب لزوجها وريثاً للّقب.

هذا إلى أن أوليڤيا، التي ازدادت قامتها طولاً وتطور ونما جسمها في السنة الماضية، كانت تعلم أنها لا تملك ثوباً لائقاً للحفلة، وأن كل ثيابها أصبحت الآن إما قصيرة جداً وإما ضيقة.

كانت تعي أن أباها يواجه متاعب حالية وأن امكانية شراءه ثوب لأجل الحفلة معدومة. وعندما أعلنت أوليڤيا في البيت أنها لا تريد الذهاب إلى تلك الحفلة، قالت لها زوجة أبيها:

ـ لا تكوني سخيفة. لقد سبق أن أخبرت أوغستا فيتز شارلز حين صادفتها في القرية منذ أيام، بأنك متشوّقة إلى حضور حفلتها، لذا لا تدعيني أسمع المزيد من هذا الكلام الفارغ.

فصاحت باكية:

ـ ولكن ليس لديّ ما أرتديه.

ـ هراء، ذلك الثوب الأزرق مناسب جداً.

ـ آه، لا إنه غير مناسب أبداً.

أخذت أوليڤيا تحدث نفسها بذلك عابسة، وهي تحملق في زوجة أبيها على مائدة الفطور.

قلّما يهم باميلا أن تبدو ابنة زوجها مخيفة في ثوب طفولي، خصوصاً إذا

www.elromancia.com

قارنته بما سيلبسه بقية الفتيات اللاتي في سنها. ستبدو فظيعة!

وكان الحق معها، فقد بدا ذلك واضحاً وهي تنظر في أنحاء القاعة الكبرى في القصر، بعد ذلك بأيام.

لم تكن أوليڤيا ترى تلك النوافذ المستطيلة، ولا شعار الأسرة القديم المعلق كالجواهر والمتدلي من السقف فوق رأسها، فعيناها كانتا شاخصتين إلى دومينيك، الذي كان، لسوء حظها، محاطاً بمجموعة من الفتيات الأنيقات الرائعات الجمال، وكلهن أكبر منها سناً وأكثر منها خبرة وحنكة.

ربما ما كان الأمر ليتدهور إلى هذا الحد من السوء لو أن أخاها الأكبر هيغو، استطاع أن يرافقها إلى الحفلة. لوجدت على الأقل من تكلمه، بدل أن تقف هنا، وحيدة مجهولة، بينما يستمتع الجميع. لكن أخاها البالغ العشرين من العمر، استطاع أن يغادر المنزل في اليوم التالي للعيد لكي يمضيه في منزل أحد أصدقائه القدماء من أيام المدرسة.

وإذ تملكتها المرارة للنظرات المشفقة التي كانت بعض الفتيات الأنيقات ترمقها بها أحياناً، ولإحساسها بأن الجميع يهزأ من ثوبها القديم الطراز، أدركت أوليڤيا بأنه ما كان عليها أن تدع زوجة أبيها ترهبها وترغمها على حضور الحفلة الليلة.

كانت أوليڤيا التي لم تتبادل سوى بضع كلمات مع دومينيك، واقفة في آخر القاعة تتساءل متى يمكنها أن تجد من يأخذها إلى البيت، وكانت الحفلة في أوجها، عندما انفتح بجانبها باب صغير، وامتدت يد دومينيك تقبض على ذراعها بسرعة وتجرها في ممر مظلم.

- تعالي نخرج من هنا.

قال ذلك ضاحكاً وهو يجرها خلفه مجتازاً الممر صعوداً على سلم حجري.. كانت الفجوات على كل درجة منه شاهدة على قدم هذا القصر الذي شيد في عهد النورمانديين. سألته لاهثة وهي تتبعه:

- إلى أين نحن ذاهبان؟ ألا يجدر بك أن تكون في القاعة مع ضيوفك؟.

- يمكنهم أن يستمروا لحظة من دوني.

وضحك مرة أخرى ثم توقف على فسحة السلم وأخذها بين ذراعيه بسرعة قبل أن يقودها مرة أخرى في ممر آخر. ولأن عالمها تغيّر فجأة من تعاسة عميقة إلى بهجة عارمة، كانت مستعدة للحاق به إلى نيران جهنم لو اقتضى الأمر، لكن الواقع هو أن هدفه كان أقل إثارة... كان غرفة نومه.

- سنكون في أمان هنا.

قال ذلك بثقة وهو يغلق الباب خلفهما قبل أن يأخذها بين ذراعيه، مؤججاً حبها.

في هذه اللحظات، غاب وعي أوليڤيا عن كل شيء إلا عن الرجل الذي تحبه من كل قلبها وعن ذراعيه اللتين تضمانها.

كانا مستغرقين تماماً مع بعضهما البعض، غير منتبهين إلى شيء، ولم تفهم أوليڤيا في البداية ما كان يحدث عندما انفتح الباب فجأة ودوّت في الغرفة صرخة غضب عارم.

كاد قلبها يقفز من الفزع وهي تدرك أنهما لم يعودا بمفردهما، لأن إحدى الفتيات اللاتي كان دومينيك يعبث معهن في بداية السهرة، كانت تقف عند العتبة وقد استبد بها الغضب. وقبل أن تفهم أوليڤيا ما كان يحدث، كانت صرخة الفتاة قد أحضرت عدداً كبيراً من الضيوف الذين ركضوا ليروا المشهد.

أصبحت الأحداث التي تلت ذلك، مع مرور السنوات، ضباباً غائماً لا تذكر منه سوى أجزاء مخيفة. السرعة الهائلة التي أخذت تسوّي فيها ملابسها والإحساس بالرعب بسبب الغضب والاشمئزاز اللذين بدَوا على وجه والدة دومينيك، والشعور بالمذلة والعار لأن الكونتيسة أمرت ابنها بلهجة كالثلج، بأن ينزل إلى ضيوفه، قبل أن تأمر خادماً بأن يعيد الفتاة الباكية إلى أهلها، حيث واجهت أوليڤيا معاملة من زوجة أبيها أسوأ بكثير.

كان تصرف باميلا مبالغاً فيه أمام حادثة صغيرة كهذه، سرعان ما

يطويها النسيان. لقد وصل باميلا القول إلى أنها لم تعد تستطيع أن تظهر بين الناس، فتصرف ابنة زوجها جلب العار على الأسرة. وبلغ بها المبالغة في الغضب حداً جعل ذلك الرجل الوديع الضعيف والدها يصدق أن ابنته قد أصبحت فتاة سيئة السلوك والسمعة، وأنه ينبغي أن يرسلها بعيداً عن البيت لكي تجنّب أسرتها المزيد من الخزي.

وكانت هذه الحادثة بالنسبة إلى باميلا، الفرصة الذهبية التي ستخلصها من ابنة زوجها البغيضة. لكن أوليڤيا، التي عوملت وكأنها منبوذة اجتماعياً وأرسلت إلى بيتها بشكل مهين، انقبض قلبها لأنها لم تتلق من الرجل الذي عصف حبه بكيانها، كلمة واحدة تخفف عنها. بينما كانت القرارات بشأن مستقبلها تؤخذ، دون اعتبار لرأيها.

ازداد تلهفها للاتصال بدومينيك، فراحت تتسلل في الليل خارجة من البيت بصمت لكي تضع له في صندوق البريد رسائل تتوسل فيها إليه ليساعدها وينقذها، لكنها لم تتلق جواباً قط.

وأخيراً أثمرت مكائد باميلا التي قررت وزوجها أنهما لن يعيدا أوليڤيا إلى المدرسة بعد العطلة لتنهي امتحانها النهائي. وأنهما بدلاً من ذلك سيرسلانها إلى المعهد البريطاني في فلورنسا لتعيش مع أسرة محلية وتتعلم اللغة الإيطالية. وعلى الرغم من دموعها وتوسلاتها، اتخذ أبوها للمرة الأولى في حياتها، موقفاً حازماً. ربما لأنه سيوفر مبلغاً مهماً من المال إذ لن يضطر لدفع القسط المرتفع للمدرسة الداخلية الإنكليزية.

عندما وجدت أوليڤيا نفسها وحيدة في فلورنسا في منتصف فصل الشتاء، شعرت بتعاسة وشقاء لم تعرف لهما مثيلاً من قبل. وخلافاً لما كانت تتوقع، كان ذلك الجزء من إيطاليا بارداً كثيراً في الشتاء، حيث الرياح الثلجية تكتسح شوارع المدينة على ضفاف نهر «أرنو».

كانت الأسرة الإيطالية التي تسكن معها وأساتذتها في المعهد البريطاني جميعاً لطفاء ومتعاونين معها. لكن أوليڤيا بقيت مدة طويلة تعيش في ضباب كثيف من الذهول. فقد انسلخت فجأة عن الحياة الوحيدة التي تعرفها في

انكلترا... ولكم ندمت لأنها كتبت رسائل إلى دومينيك أرسلت له فيها عنوانها في إيطاليا، لكنها لم تسمع منه خبراً بعد ذلك قط.

لكنها الآن تدرك أن دروس اللغة التي تعلمتها حينذاك هي وحدها التي صانت عقلها في ذلك الزمن التعس. وعندما ابتدأ الشتاء يفسح مجالاً للربيع ومن بعده الصيف، بدأت تقدّر جمال مدينة فلورنسا الحقيقي، مهد النهضة الإيطالية التي ما زالت محجاً لأولئك الذين ينشدون رؤية روائع الفنون والهندسة.

وعندما تركت ايطاليا، سافرت إلى فرنسا حيث أمضت عاماً في تعلم الطهي في باريس، وما إن عادت إلى منزل أبيها حتى وجدت أن زوجة أبيها ما زالت مصممة على ابقائها بعيدة عن البيت، فقررت عندئذٍ أن تشفى من تحطم قلبها.

لقد احتاجت إلى وقت طويل حتى اعتادت على فكرة أن الحب الذي كان مركز كيانها ووجودها، لم يكن بعني شيئاً لدومينيك فيتز تشارلز. وبدا واضحاً لها أنها كانت بالنسبة إليه فتاة عابرة في حياته، فتاة غبية، بريئة، مثيرة للشفقة.

في السنوات العشر الماضية، استطاعت أن تدفن كل السعادة التي عرفتها يوم أحبّت دومينيك. ولكن الآن... الآن بعد أن تقابلا مرة أخرى... يبدو أنها لم تعد تستطيع منع تلك الذكريات من أن تطفو إلى ذهنها.

استدارت أوليڤيا مبتعدة عن النافذة وهي تتنهد، ثم عادت إلى السرير.. جذبت الغطاء فوق جسدها النحيل وغرقت في نوم مضطرب غير مريح، تعزيها فكرة أن الدرس القاسي الذي تلقته في الماضي، قد استوعبته جيداً في الحقيقة.

والآن، وقد أصبحت أكبر سناً، وأكثر حكمة، وتجيد السيطرة على مشاعرها، كانت تشعر بالرضا لأنها لن تسمح لنفسها مجدداً بأن تصبح ضحية جاذبية دومينيك البالغة الخطرة.

***

٤ ـ العفريت العاشق

أمضت أوليڤيا ليلتها تتقلب من جنب إلى جنب، وعندما فتحت عينيها في الصباح، وجدت أن ضوء النهار كان يتدفق من النافذة، وأنها لم تكن وحدها.

قال دومينيك:

ـ فكرت في أنك قد تودّين كوب شاي.

وأغلق الباب خلفه قبل أن يتقدم ليضع كوب الشاي بجانب السرير.

تثاءبت وهي تشعر بدوار خفيف من قلة النوم، ثم أدركت أن طرقه على الباب هو الذي أيقظها على الأرجح.

كان يرتدي بذلة كحلية، وبدا أنه بحاجة واضحة إلى حلاقة، ومع ذلك كان في غاية الجاذبية، إنما أقل خطراً بكثير مما كان عليه الليلة الماضية.

لم يكن من شك في أنها كانت متعبة جداً. غير أن وجودها في منزله قريب بعض الشيء، لذا وجدت من الحكمة أن ترتدي ثيابها وتغادر بأسرع ما يمكن.

ـ هل الوقت متأخر جداً؟

سألته ذلك بعد أن أدركت أنها تركت ساعتها في الحمام:

ـ لا! إنها تمام العاشرة.

قال هذا وهو ينظر إلى الفتاة الناعسة، وشعرها الطويل المنتشر على الوسادة، فتمتمت تقول:

ـ آه، رباه! أنا أستيقظ عادة قبل الآن بوقت طويل. يجب أن أرتدي ملابسي و...

ـ استريحي، فقد سبق أن اتصلت برقم الطوارىء في الدائرة التي تعالج أمر أنبوب المياه المنفجر، فقالوا إن العطل أسوأ مما ظنوه في البداية وهم ما زالوا يصلحونه. ويُستبعد أن تتمكني من العودة إلى بيتك قبل مساء اليوم. كما أن اليوم هو السبت. هل نسيت؟ فإذا لم يكن لديك موعد مستعجل...؟.

تثاءبت وهزت رأسها نفياً.

فقال بحزم:

ـ حسناً إذن، أقترح أن تستريحي قليلاً وتشربي الشاي.

ثم استدار ليغادر الغرفة.

قالت:

ـ وماذا عنك؟ أعني كانت شهامة منك حقاً أن تستضيفني الليلة. لكنني واثقة أن لديك برنامجاً خاصاً لهذا النهار.

رفعت الملاءة إلى تحت ذقنها، وتابعت:

ـ وأنا لا أريد أن أكون مزعجة وأعرقل مشاريعك!.

ـ هراء. ليس لدي أي خطة لهذا النهار، وهذا ما جعلني أخرج لأتمشى حول مستشفى «رويال».

ـ حيث يعيش متقاعدو تشيلسي؟

طرحت هذا السؤال وهي تتذكر رؤية الجنود المتقاعدين بسراتهم الحمراء المتألقة المغطاة بصفوف الميداليات في كثير من المناسبات الرسمية في لندن.

ـ نعم، من المؤكد أن هؤلاء العجائز يمضون حياة رائعة، وغالباً ما يستمتعون بحياتهم. لذا أقترح عليك أن تحذي حذوهم.

قال ذلك ضاحكاً ثم أضاف:

ـ ارتاحي ولا تهتمي بشيء، واشربي الشاي قبل أن يبرد.

فقالت متذمرة وهي ترفع نفسها على الوسادة:

ـ هل أنت متحكم دوماً بهذا الشكل عند الصباح؟

ـ تماماً، خصوصاً مع تلك التي لا تعرف النصيحة الجيدة عندما تسمعها.

قالت متهكمة:

ـ آه، نعم! وما الذي ستفعله أثناء ذلك؟ تذهب لمزاولة الألعاب الرياضية لمدة ساعة؟

ونظرت إلى ذلك الرجل الطويل، وتابعت تقول:

ـ أحياناً أفكر في أن كل هذه الفلسفة عن الاهتمام بلياقة الجسم قد خرجت عن السيطرة تماماً.

قالت هذا بكآبة، واعية، لسوء الحظ، بأن عليها أن تزور نادي الرياضة القريب أكثر مما اعتادت. وضحك هو:

ـ أنا لا أبالغ في ذلك، في الحقيقة، ولكن بعد أن تمشيت ساعة هذا الصباح، أظن ذلك يكفي لليوم. أمّا الآن فسأعدّ القهوة، وأقرأ الصحيفة، ثم أستحم على مهل، وكما ترين...

وابتسم ساخراً وهو يفتح الباب ليغادر الغرفة.

ـ ... أنا أؤمن باتباع نصائحي الجيدة الخاصة.

بعد أن قررت تجاهل (نصائحه الجيدة) بأن تشرب الشاي فقط ثم ترتدي ثيابها، اتكأت على الوسائد خلفها لحظة، محاولة اعتياد علاقتها الجديدة، والغريبة نوعاً ما، مع دومينيك.

عندما وقعت عيناها أمس، للمرة الأولى، على دومينيك، كانت في حالة نفسية سيئة. ولم يكن هذا غريباً نظراً للظروف التي جمعتهما في المرة الأخيرة، حين تصرف بشكل مشين حقاً، ليس فقط لأنه هجرها عند المحنة الأولى، بل لأنه أيضاً لم يعبأ بالاتصال بها مرة أخرى منذ ذلك اليوم.

ومع ذلك... منذ دقائق كانا يتحدثان، ويضحكان، ويغيظان بعضهما البعض. والواقع أن دومينيك يعاملها وكأنهما صديقان قديمان، لم

يشب صداقتهما شيء، وهو أمر غريب وغير مفهوم في الواقع... إلا إذا كان طبعاً، قد نسي كل شيء عن تلك الحفلة المخيفة. وكان هذا ممكناً. لأنه أصبح منذ ذلك الحين أكثر مراوغة وتفادياً لمثل تلك المواقف بالرغم مما ترويه الصحف الشعبية عن نزواته وطيشه. وفي الواقع، لا يبدو أن هناك سبباً يوجب عليه تذكّر ما كان في الحقيقة مجرد فضيحة محلية صغيرة سرعان ما أُخمدت.

أغمضت عينيها، ولم تعرف أن النوم استولى عليها إلا بعد أن استيقظت بعد قليل، لتجده جالساً على السرير بجانبها.

تمتمت وهي تطرف بعينيها إزاء وجهه الوسيم.

ـ آه، رباه! لم أقصد حقاً أن أعود إلى النوم. ولا أدري ما الذي حدث لي...

فهز كتفيه:

ـ ربما تعملين أكثر مما ينبغي، وربما هذه طريقة الطبيعة لتطلب منك أن تتمهلي.

أطلقت هزة كتفه تلك أجراس الإنذار في عقلها المتعب. تحذير أخذ يزداد ارتفاعاً عندما أخذت عيناها الناعستان تحدقان إلى اتساع صدره القوي. وأدركت من قطرات الماء التي كانت تتألق على كتفيه السمراوين، وشعره الرطب، أنه قد اغتسل لتوّه.

تصاعد رنين أجراس الإنذار إلى درجة تصم الآذان حين وقعت عينا أوليڤيا بتوتر عليه جيداً.

كيف بلغ بها الغباء حد النوم مرة أخرى؟.

سألته لاهثة:

ـ هل تأخر الوقت...؟.

ثم التفتت إلى النافذة، لترى من خلالها أن الطقس ما زال صاحياً مشرقاً.

قال متمهلاً:

www.elromancia.com

ـ الساعة تشير إلى الثانية عشرة، وهذا ليس وقتاً متأخراً بالنسبة إلى أولئك الذين يريدون قضاء صباح سبت كسول في الفراش.

جعلها لمعان عينيه وصوته الأجش المنخفض تشعر فجأة بتوتر بالغ.

وتابع يقول بابتسامة مغرية:

ـ لا حاجة بك للنهوض من السرير أبداً إذا كنت لا تريدين ذلك. يمكنني أن أطهو لك شيئاً للغداء ثم أحضره إليك.

ـ أنت... تطهو لي الغداء؟.

وطرفت بعينيها بدهشة، وقد ألهاها قوله مؤقتاً عن هذا الوضع المحرج الذي انحشرت فيه.

ـ لا بد أنك تمزح.

فقال بكبرياء:

ـ لا، على الإطلاق. طريقتي في قلي البيض المخفوق نالت اعجاباً بالغاً.

فتمتمت بابتسامة عريضة:

ـ آه، أحقاً؟ حسناً، ما كنت لأظن يوماً أنك طاهٍ، فكيف أفكر للحظة أنك معلم في قلي البيض المخفوق.

ـ أهه... سأجعلك تعلمين أنني رجل متعدد المواهب.

ردت بجفاء: «أراهن على ذلك»!

ولكنها أدركت فجأة أن عليها أن تتمالك نفسها. لقد حان الوقت حتماً لوضع حد لهذا النوع من العبث الخطر، لأنه لم يعجبها ذلك اللمعان الباعث على الاضطراب في عينيه. كما أنه كان قريباً جداً منها، ولو صدّقت نصف تلك الأشياء التي يكتبونها عن هذا الرجل، لكان ذلك كافياً لتبيان خطره. وهو، واأسفاه! رجل خارق الجاذبية، وعليها أن تواجه الواقع، مع أنها ليست سوى بشر.

وإذا كان لسرعة نبضها أي معنى أو سبب فهو أن تلك الهالة من الجاذبية التي تحيط به، قد أخذت تترك تأثيرها المشؤوم على قلبها وكيانها.

وإن لم تكن تريد أن تخدع نفسها، فعليها أن تهرب من هذا الوضع في أسرع وقت ممكن.

قالت بإيجاز وهي تشدّ قبضتها على ملاءة السرير التي تغطي جسمها:

ـ حسناً، أظن أنه حان الوقت لأرتدي ملابسي وأعود إلى بيتي.

ـ عودتك إلى البيت ليست فكرة حسنة قبل أن يصلحوا أنبوب المياه المنفجر ذاك. وهذا لن يحدث قبل مساء اليوم، فاستريحي.

قال هذا بابتسامة متكاسلة جعلت قلبها يخفق. وعندما مد يده بلامس شعرها الطويل، علمت أنها في مشكلة. وفي محاولة قانطة لتجاهل الرجفة التي تملكتها، ابتلعت ريقها بصعوبة قبل أن تتنفس بعمق.

ـ بصراحة تامة، يا دومينيك، يؤسفني أنك تضيّع وقتك. فأنا واثقة أن هناك مئات النساء الرائعات المستعدات لدفع أي شيء لكي يهرعن إلى ذراعيك. لكنني حقاً لست من هذا النوع الذي يؤثر فيه مثل هذا الإغراء الكبير.

تمتم: «عجباً، عجباً...»!

بدا في عينيه ضيق خفيف وهو يحدّق إليها، وكان الجمود يكسو ملامحه مما يشير إلى أن حديثها الصريح هذا لم يعجبه. ثم قال ببطء وبرودة:

ـ لا بد لي من القول إن ذكر تلك (المئات من النساء الرائعات) هو شيء مطَمْئن. ولكن، لسوء الحظ! يبدو أن حياتي حافلة بالعمل هذه الأيام بحيث لا أجد وقتاً لمزاولة «الإغراء الكبير» كما تسمينه، يا أوليفيا.

قال جملته تلك بسخرية بالغة ثم أردف:

ـ من يدري... فقد أجد عدة دقائق فراغ.

أسرعت تقول:

ـ لابأس، لابأس، أنا آسفة. يبدو أنني تجاوزت حدودي قليلاً في الكلام.

وابتسمت له معتذرة بشكل متوتر وأخذت تنظر في عينيه بثبات:

ـ المسألة، يا دومينيك أنني لم أعد تلك الغبية المعتوهة، بنت الثمانية

www.elromancia.com

عشر عاماً التي كانت تعتقد أن «اللورد بيرون» الشاعر العاطفي الذي كان يهز المشاعر قد تقمّص فيك.

فتأوه قائلاً: «آه، أرجوك».

فتنهدت بعمق:

ـ نعم، حسناً، أنا لست سعيدة كثيراً بالاعتراف بأنني كنت تلك المعتوهة الحمقاء، ولكن هذا كان منذ زمن طويل، والحمد لله. وأنا أحب أن أعتبر نفسي امرأة عقلانية سويّة التفكير متكيّفة مع المجتمع. وهذا يعني أني أصبحت أعقل من أن ألعب بالنار فأحترق مرة أخرى.

وعندما بقي دومينيك صامتاً يحدّق إليها وعلى وجهه تعبير غامض، عادت تقول:

ـ اسمع... رغم أنك رجل وسيم غاية، ولديك دون شك، قائمة تشهد لك بكل الفضائل، إلا أنني في الحقيقة، لا أريد التورط معك.

بقي ينظر إليها لحظة صامتاً ثم قال هازلاً وهو يدس أصابعه في شعرها:

ـ حسناً، شكراً لهذه الكلمات القليلة الرقيقة عن ميزاتي.. ما من أحد يسعه اتهامك بعدم الصراحة التامة وبعدم قدرتك على التطرق إلى صلب الموضوع، أليس كذلك؟.

ـ حسناً... لعلي أسأت الفهم... طبعاً.

تمتمت بذلك وقد احمرت وجنتاها الشاحبتان خجلاً، وأدركت فجأة أنها قد تكون أساءت فهم الوضع ولا بدّ ستبدو حمقاء كبيرة لو اتضح أنه لم يكن ينوي اغواءها.

ـ أعني، ربما لم يكن في نيتك أن...

ـ أن أتصرف معك بطريقتي الأثيمة..؟.

تمتم بذلك مستمتعاً بمنظر وجنتيها اللتين غمرتهما حمرة الخجل.

ـ حسناً، سواء كانت لدي نوايا أثيمة أم لا، يجب أن أقول إن قميص النوم هذا الذي ترتدينه هو مضاد للرغبات من الدرجة الأولى... ولا أصدق أنه لأختي.

نظرت بحركة غريزية إلى قميص النوم الأبيض القطني الفيكتوري الطراز، ذي «القبة» العالية والكمين الطويلين، ثم رفعت عينيها إلى عينيه، وقد حيّرها أن تجد نفسها تبادله، دون إرادة، ابتسامته الهازلة. ثم قالت بتزمت:

ـ إنه قميص عقلاني تماماً.

ـ ويناسب جداً مثل هذه السيدة (العقلانية)؟ أنا واثق من ذلك.

ضحك وتابع: «إنما من الصعب أن يجعل نبض أي رجل يتسارع».

قالت بابتسامة عريضة.

ـ أنا مسرورة لسماع هذا.

ثم وجدت نفسها، ويا للحماقة، تترك الملاءة لترفع يديها حتى تزيح شعرها عن وجهها إلى الخلف. ولكن لسوء الحظ، انتهز دومينيك الفرصة وأحاط جسدها النحيف بذراعه وشدها إليه. فهتفت بسرعة وهي تضع يديها على صدره الواسع، تدفعه عنها باحتجاج، وهي تلهث:

ـ آه، هيا! لقد أخبرتك لتوّي بأنني لا أريد الانخراط في مثل هذا العبث... ثم لقد وعدتني ألا تضع يدك عليّ؟.

ـ نعم، لقد وعدتك بهذا الليلة الماضية، أليس كذلك؟.

أحدثت النبرة المغرية في صوته رجفة في جسدها.

ـ لكننا لم نتحدث عن القواعد الأساسية لهذا النهار. وبما أنك طالما قررت أن تمنحيني دور (العاشق العفريت) فأنا أكره أن أخيّب ظنك.

ـ ها... ها... هذا مضحك جداً!.

ردّت عليه لاهثة، محاولة بجهد أن تتجاهل إغراء جاذبيته وسحره.

ـ صدقني، يا دومينيك. أنا لست مستعدة لأن أكون رقماً بين صديقاتك... لن يحدث ذلك مرة أخرى أبداً... أبداً.

ـ ما كنتِ قط رقماً... وأنت تعرفين ذلك.

رد عليها بغضب وهو يشدّد من احتضانها:

ـ بحق الله، يا أوليڤيا. ما زلت أذكر الوقت القصير الذي أمضيناه معاً.

فأطلقت ضحكة ثاقبة، وقالت هازئة:

ـ آه، نعم! ولماذا إذن لم أسمع خبراً منك... منذ ذلك الحين؟

فقال بغضب مفاجىء وهو يدفعها عنه بخشونة نحو الوسائد.

ـ أظنني أنا الذي يجب أن أسأل... ماذا أقول أنا الذي لم أستلم أي جواب لرسائلي، أو لاتصالاتي الهاتفية؟.

فسألته عابسة:

ـ انتظر لحظة! أي رسائل وأي اتصالات هاتفية؟ منذ اللحظة التي عدت فيها إلى البيت بعد تلك الحفلة المخيفة، إلى اللحظة التي رأيتك فيها على درجات الكنيسة أمس، لم أتلق منك شيئاً أبداً.

فقال بمرارة:

ـ تعلمين جيداً أنني حاولت الاتصال بك.

فقالت بحدة:

ـ لا أعلم شيئاً. وليس لي مصلحة في أن أكذب عليك في هذا الأمر. أليس كذلك؟

رفعت وجهها بتحدٍّ:

ـ أما بالنسبة إليك، أحسب أنه كان لديك كثير من الأسباب لتتركني.. الصديقات الأخريات مثلاً، أمك الخشنة الطباع التي دفعتك لتتخلى عني، وهذا بالضبط ما فعلته أنت!.

ـ كلام فارغ. أنت مخطئة كلياً، وليس هذا ما حدث.

وتخلل شعره بيده، قائلاً بصوت خشن:

ـ على كل حال، أنت على صواب في شيء واحد. لقد حدث شجار عنيف بيني وبين أمي بعد أن انتهت الحفلة، رغم أنه ينبغي أن أقول إن كثيراً مما قالته أمي حينذاك كان معقولاً.

وسكت ونظر من النافذة عدة لحظات، ثم واجهها قائلاً:

ـ لا شك أن كلينا كان صغيراً على الحب. عليّ أيضاً أن أعترف بأن أمي كانت على صواب تماماً عندما قالت إني تصرفت تصرفاً سيئاً للغاية. فأنا أكبرك بسنوات، وهذا يعني أن من واجبي ومسؤوليتي ألاّ أفسد عليك حياتك. لقد كنت صغيرة جداً، يا أوليڤيا، كنت في الثامنة عشرة فقط وما زلت في المدرسة. وكان من الخطأ الفادح مني أن أستغل مثل تلك البراءة.

وساد صمت طويل بعد كلامه هذا، قالت بعده ببطء:

ـ كيف يسعك أن تجزىء اللوم في مسألة كهذه. فارق العمر بيننا ليس إلا خمس سنوات، ومهما كنت أنا عليه من الحماقة وعدم النضج، فقد كنت أكنّ لك حباً كبيراً، يا دومينيك. ومع ذلك، أظن أن اللوم في ذلك يقع علينا نحن الإثنين... أليس كذلك؟.

ـ قولك هذا من كرم أخلاقك... وهو دون شك أكثر مما أستحق. أؤكد لك أن أكثر الجدل مرارة بيني وبين أمي كان لإلحاحي على إخبارك، وجهاً لوجه، بالأسباب العقلانية السليمة لكي ننهي علاقتنا حتى تكبري عدة سنوات على الأقل وتكتسبي بعض الخبرة في الحياة.

ـ لكنك لم تفعل. لم تقم بأي محاولة لرؤيتي.

قالت هذا بفظاظة رغم ما لمسته من صدق في لهجته، وضحك بجفاء:

ـ بل فعلت. بعد أن اتصلت هاتفياً عدة مرات، وأقفلت باميلا الهاتف في وجهي، ذهبت إلى بيتك وإذا بزوجة أبيك اللعينة تخبرني أنك لا تريدين رؤيتي مجدداً، ثم أقفلت الباب في وجهي.

فتمتمت باميلا:

ـ آه، رباه! هذه هي طباع باميلا بالضبط. لقد أحدثت ضجة كبيرة بالنسبة لذلك الأمر. وفي الواقع، لازمت البيت مجبرة حتى أرسلاني، هي وأبي، إلى إيطاليا بشكل مهين للغاية. أعرف بأن لا أحد يعامل أولاده بمثل هذا الشكل هذه الأيام. كان الأمر غاية في الغباء، أليس كذلك؟.

تنهدت. فقال موافقاً:

ـ نعم، إنه جنون كلي.

سألته:

ـ ولكن ماذا حدث لرسائلي؟ لم أجرؤ على الاتصال هاتفياً بالقصر، طبعاً، لكنني كتبت أكواماً من الرسائل. معظمها رسائل حمقاء مشبعة بالتعاسة. وليس ذلك فحسب إذ كتبت إليك من إيطاليا. هل تقول إنك لم تستلم أياً منها؟.

فهز رأسه: «لا. ولا واحدة».

واقتنعت مرة أخرى بصدق لهجته، وساد صمت ثقيل آخر وهما يحدقان ببعضهما البعض قبل أن تقول أوليڤيا بهدوء:

ـ أمك وأبي وزوجته اتفقوا بلا ريب على ألاّ يسمحوا لنا بأن نتقابل مرة أخرى، أليس كذلك؟.

فأومأ ببطء:

ـ هذا ما يبدو. يؤسفني أن أقول هذا، لكن لا شيء يمنع أمي من مراجعة بريدي. وبما أنها كانت تعرف أن أبويك أرسلوك إلى ايطاليا...

ـ هذا صحيح. أدركت أن هذه الرسائل مني.

ـ إذن، كلانا كان مخدوعاً. أنت جعلوك تعتقدين بأنني لم أهتم بما حدث لك. أما أنا...

وهز كتفيه وهو يلتفت لينظر من النافذة بذهن شارد. ثم قال أخيراً وهو يعود فيلتفت إليها بابتسامة باردة:

ـ لا جدوى من إثارة أحزان مضت، أليس كذلك؟.

ـ بعد عشر سنوات؟ طبعاً لا.

ـ لابأس، حسناً... أظن أننا واجهنا ما يكفي من المآسي في صباح يوم واحد. ألا تظنين أنت هذا؟ والواقع أننا بحاجة إلى شراب منعش وطعام ما.

ابتسم وأمسك يدها يرفعها إلى شفتيه لحظة قصيرة قبل أن يتركها وينهض واقفاً.

قال وهو يسير نحو الباب:

ـ لقد تركت أختي بعض البنطلونات والكنزات في خزانتها، لذا يمكنك أن ترتدي شيئاً منها... سأراك في الطابق الأسفل بعد دقائق.

ثم أغلق الباب خلفه.

ما قاله مسح عنه كل ذنب بومضة عين. ولم يدهشها هذا، فهي أيضاً شعرت بالأرض تنهار من حولها، وهي تكتشف بأنها كانت مخطئة طوال تلك السنوات. ومع ذلك بدا لها من الأسلم والأوفى أن تبقي العفريت العاشق بعيداً عنها مرة أخرى.

وبدأت تفكر في أن دومينيك لم يقل قط أنه يريدها. لذا ربما هي مخيّلتها الخصبة التي تجاوبت بالغريزة مع جاذبيته الخارقة فقادتها إلى توقع خاطىء بذلك الشكل. إذا كان الأمر كذلك، فقد حان الوقت إذن لكي تهدىء مشاعرها وتسيطر على نفسها.

أخذت تبحث في الخزانة عما تلبسه، لأن «طقمها» المخملي الأسود لا يناسب يوم عطلة السبت.

كانت تبحث بين الملابس عما يناسبها، وهي غارقة في الماضي، لدرجة أنها وجدت نفسها أخيراً مرتدية ملابسها كلّها، دون أن تدري كيف حدث هذا.

رفعت شعرها بسرعة على رقبتها من الخلف. ولم تستطع إلا أن تعبس لمنظرها في الجينز. كان لسوء الحظ، واسعاً على قوامها النحيف، لكنها لم تجد مشكلة في القميص الواسعة المريحة الزرقاء، ذات القبة العالية.

ـ هذا أفضل.

قال دومينيك هذا حين شدت البنطلون الجينز بأحد أحزمته الجلدية. وسرها أن تجد شيئاً مريحاً تلبسه ويناسب الكنزة الكحلية التي ارتدتها فوق القميص الأزرق.

ـ لم أتوقع أن تجدي بين أحذية أختي ما يناسبك.

ونظر إلى قدميها وهو يتابع:

ـ لم يبق سوى مشكلة واحدة بالنسبة إليّ.

ـ هيه . . . ماذا تفعل؟ .

صرخت بذلك محتجة حين نزع من شعرها بسرعة مشطين أزرقين كانا يثبتان شعرها من الخلف، تاركاً شعرها الكثيف ينسدل على ظهرها .

قال ضاحكاً :

ـ مبادلة منصفة . أنت ترتدين ملابس أختي، أما أنا، في المقابل، فأستمتع برؤية شعرك الطويل الجميل .

وضع في يدها كوباً من العصير، وابتسم بابتسامة عريضة ولمعت عيناه وهو يرى عينيها تحملقان فيه .

لكنها هدأت عندما أخذت ترشف العصير، إذ بدا لها من غير المجدي أن تجادله في مثل هذا الأمر التافه، لا سيما أنها كانت جائعة للغاية لأنها لم تأكل جيداً أمس في حفلة الزفاف . وعندما كانت تفكر فيما إذا عليها أن تعرض أن تطهي الغداء بنفسها، بدا دومينيك وكأنه قرأ أفكارها فقرر أن يوفر عليها تذوق خبرته في الطهي، ويأخذها إلى مطعم فرنسي صغير، وقال :

ـ الخروف المشوي هناك لذيذ للغاية . أسرعي إذن بإنهاء شرابك، لأن الحقيقة يا أوليڤيا هي أنني أكاد أموت جوعاً .

كان المطعم الفرنسي الصغير دافئاً مريحاً، والطعام فيه كما وصفه دومينيك تماماً . وعندما جلسا إلى المائدة، قال لها بحزم :

ـ أقترح بأن نؤجل الكلام عن حبنا القديم إلى ما بعد .

ـ نعم . موافقة .

فقد رأت اقتراحه منطقياً .

أخذا يثرثران أثناء الطعام عن مواضع مختلفة . ودهشت عندما وضع النادل فنجان قهوة أمامها، فإذا بها تكتشف أنها كانت مستمتعة بصحبة دومينيك بحيث لم تنتبه أن الطعام رُفع عن المائدة . . بدا لها ذلك أمراً لا يُصدق، خصوصاً عندما تذكرت مدى الذعر والتوتر اللذين شعرت بهما في الليلة الماضية .

قال دومينيك :

ـ لست واثقاً من أن العودة إلى التفكير في ما مضى فكرة صائبة .

سكت لحظة وهو يحدق في فنجان القهوة على المائدة أمامه، ثم بدأ بتحريك أصابعه السمراء .

ـ الخجل يتملكني لأنني لم أقم بمجهود أكبر لاكتشاف ما حدث لك في السنوات الماضية، وهذا يدفعني بالتأكيد لأسألك عما فعلته بعد انفصالنا .

فسألته بمرح :

ـ كم لديك من الوقت لكي تسمع؟ .

قال ضاحكاً :

ـ كم تحتاجين؟ ساعة؟ . . يوماً؟ . . أسبوعاً؟ .

فأجابته ضاحكة :

ـ انتظر! نحن نتكلم عن عشر سنوات، ليس إلاّ .

ـ لماذا إذن لا تبدئين منذ البداية . . . ثم تستمرين إلى النهاية؟ .

ـ حسناً، ليست قصة مثيرة .

أخذت تخبره عن تعلمها اللغة الإيطالية في فلورنسا ثم قالت له :

ـ يؤسفني أن إيطاليتي أصبحت الآن ضعيفة . . . بعد ذلك أمضيت سنة في فرنسا تعلمت أثناءها الطهي .

فقال ببطء :

ـ أحقاً؟ من حسن حظي إذن أنني لم أحاول أن أطهو لك الغداء .

ابتسمت وهزت رأسها .

ـ هراء . أحب أن آكل طعاماً يحضره الآخرون .

تمتم بارتياب :

ـ أحقاً؟ لابأس . وصلنا الآن إلى حيث أصبحت قادرة على التحدث بالإيطالية وطهي طعام طيب لذيذ . ماذا حدث بعد ذلك؟ .

ـ آه!

وأخذت تحدق في المائدة، عابثة بفنجان القهوة .

www.elromancia.com

ـ ما حدث بعد ذلك هو أنني عدت إلى انكلترا.

ـ هل عدت لتعيشي مع والديك فترة؟.

هزت رأسها:

ـ لا. بصراحة، لم يكن مرّحباً بي، ربما لأن الأحوال أخذت تتغيّر حينذاك.

ثم أخذت تصف كيف أفلس أبوها، وكيف انتهى زواجه بباميلا.

وهزت كتفيها وأردفت:

ـ وهكذا، أقمت مع بعض الصديقات عدة أشهر، متخذة أي عمل أجده. ومع اقتراب عيد الميلاد، قررت أن أقتني «شاليه» في سويسرا.

ـ هذا يبدو ممتعاً.

ـ هذا صحيح.

وافقته أوليڤيا على ذلك قبل أن توضح له أنها، وشقيقها هيغو، كانا قد تعلما التزلج خلال الإجازات التي قضتها الأسرة خارجاً عندما كانت أمها على قيد الحياة. وكانت تأمل قضاء وقت ممتع على المنحدرات الثلجية.

ـ انتظري لحظة، نسيت كل شيء عن أخيك. ماذا حدث له في السنوات الماضية؟ فآخر ما أذكر عنه أنه كان في الجامعة.

ـ نعم، حسناً... لقد تخرج هيغو من الجامعة بدرجة امتياز، ولكن لسوء الحظ ليس لدراسة التاريخ مجال عمل في السوق... فكأنه فقد شهادته، إذا كنت تدرك ما أعنيه.

فقال بهدوء:

ـ هذا يحصل أحياناً.

ـ كما أن لديه مشاكل أخرى. لكنه الآن سعيد جداً، فهو يعمل حالياً في وضع تصاميم حدائق صغيرة جداً في المدن أو باحات للبيوت. لكنني واثقة من أنه سيبدأ قريباً في الحصول على عمولات جيدة.

قال دومينيك:

ـ أنا واثق من ذلك.

ثم طلب منها العودة إلى قصتها عن الوقت الذي أمضته في سويسرا.

ـ هل أمضيت وقتك كله بالعمل؟ أم أنك استطعت الاستمتاع على المنحدرات؟

فقالت بابتسامة عريضة:

ـ أمضيت وقتاً رائعاً حقاً. ربما كنت محظوظة إذ عثرت على مستأجرين للشاليه كانوا غاية في الظرف، ولكنني، بصراحة استمتعت كثيراً فقد كنت أطهى الفطور والعشاء لحوالى عشرة أشخاص، وكان هذا أمراً سهلاً. وبعد تنظيف المكان وصنع الكيك لوجبة الشاي، كنت أمضي بقية النهار في التزلج.

ـ أرى أنك أمضيت وقتاً مرحاً حقاً. ولكن ما الذي جعلك تتركين سويسرا لتنظيم الأعراس في لندن؟

ـ بدأت الأمور حين عقدت صداقة مع كاترين روس وهي صاحبة شاليه أميركية، ومتزلجة ماهرة.

ابتسمت أوليڤيا وهي تتذكر كم كانتا تستمتعان معاً.

ـ كان لأخت كاترين الكبرى، روبين، مركز ونفوذ مهمين في أميركا، وكانت كثيرة الانشغال. وقد حدث أن وقعت في غرام رجل انكليزي.

وشرحت أوليڤيا له كيف أن والدي الشاب كانا كبيرين في السن، ما أعاقهما عن السفر إلى أميركا لحضور حفلة الزفاف، ولذا قررت روبين إقامة العرس في لندن... وطلبت من أختها كاترين أن ترتب أمر كل شيء.

ـ وعندما اعترفت لي كاترين بأنها لا تعرف كيف تقوم بذلك، عرضت عليها المساعدة.

ـ وكانت تلك بداية مهنتك؟

ـ حسناً... تقريباً.

ومنحته ابتسامة عريضة.

ـ لقد وقعنا في أخطاء شائنة، طبعاً، ومع ذلك كان نجاحنا كبيراً. وفكرنا في أن هناك عدد كبير من الناس، في حاجة إلى عون في حفلات

زفافهم. وكنا على صواب تام.

قصت عليه كيف ازدهر عملهما، إلى أن قررت كاترين الزواج وعادت لتعيش في أميركا. واعترفت له أوليڤيا كيف توترت أعصابها حين بدأت بالعمل بمفردها.

ـ وعلى كل حال، يسرني أن أقول إن العمل بمعونة مساعدتي، أثبت نجاحه، وهذه هي نهاية القصة.

أنهت حديثها بسرعة خوفاً من أن تكون قد أضجرته لطول الحديث.

لكن دومينيك بدا مستمتعاً جداً بالحديث عن عملها هذا، إنما لعله أظهر ذلك لباقة منه.

أضافت: «وهو عمل ناجح مادياً».

شعرت بأن لا حاجة بها للقول بأنها تعيش فقيرة، لأن معظم دخلها كانت تعين به أباها، الذي يعيش الآن في بيته القديم منطوياً على نفسه، وتدفع راتب مدبرة منزله التي ترعاه. ولم تقم بشيء من أجل نفسها عدا شراء بيتها الصغير الذي هو مكتبها في الوقت نفسه.

عندما نهضا عن المائدة ليغادرا المطعم، رأى دومينيك أن من المستحسن أن يحضرا سترتين من منزله ثم يذهبا للتنزه في حديقة هايد بارك، فالطقس جميل.

نظراً لقضائها سنوات بمفردها واتخاذ القرارات بنفسها، وجدت أوليڤيا من الغرابة الآن أن تكون بصحبة شخص يفترض لنفسه القيادة بشكل آلي.

غير أنها دهشت لعدم انزعاجها من الموضوع. وافقته على رأيه بأن الكثيرين ممن يعيشون ويعملون في لندن، نادراً ما يكرّسون وقتاً لاستكشاف معالم المدينة.

وهكذا وجدته يأخذها إلى نصب ألبرت التذكاري الذي أصلح في السنة السابقة. وبعد أن مشيا في الحديقة، أمضيا بعض الوقت في زيارة «غاليري سريبنتين» يتفرجان على أحدث اللوحات والتماثيل العصرية للفنانين

الناشئين.

عندما عادا أخيراً إلى بيته، رفضت أوليڤيا دعوته لها إلى العشاء، موضحة له بأنها حقاً لا تستطيع تناول وجبتين دسمتين في يوم واحد، فقال بابتسامة عريضة:

ـ حسناً، لا جواب لي على ذلك. وسيكون العشاء بيضاً مخفوقاً مقلياً في المطبخ، إياك أن تجرؤي على القول إنك لا تحبين البيض، لأنه النوع الوحيد الذي أحسن طهيه.

سألها بعد أن ذاقت أول لقمة من الصحن الذي وضعه أمامها:

ـ حسناً، هل أعجبك؟

فتمتمت تقول ببطء:

ـ همم... ليس سيئاً... ليس سيئاً أبداً. يبدو أن البيض طازج حقاً. ولعلّ الدجاجة قد باضته في شمال المزرعة...

ـ ما هذا الذي تقولينه...؟.

ـ آه، نعم... طعمه لزج...

وتابعت تقلد ساخرة ذوّاقة الطعام:

ـ من ناحية أخرى، أنا قلقة قليلاً بالنسبة إلى الخبز المحمص.

قالت ذلك وهي تجاهد لكي تبقي ملامحها رزينة.

ـ لا أظنه نضج جيداً بعد، و...

فضحك دومينيك:

ـ آه! اخرسي أيتها المرأة الفظيعة!.

ـ في الحقيقة، إذا تجنبنا المزاح، إنه جيد حقاً. البيض المخفوق اللذيذ حقاً هو من أصعب أنواع الطهي. وهذا لذيذ جداً حقاً.

قالت هذا وهي تتناول لقمة أخرى. فقال ضاحكاً:

ـ لا تخافي... هذه المرة الأخيرة التي أطهي لك فيها. وفي المستقبل سأحرص على أن تكوني أنت من يضع المئزر.

قالت وهي تضع من يدها الشوكة والسكين:

ـ والآن، عليّ حقاً أن أذهب إلى البيت. لا... لا... أنا لم أنس أنبوب المياه المنفجر. ولكن بما أنني عشت فترة في هذه المنطقة، واعتدت على أمثال هذه المشاكل، فأنا واثقة بأن كل شيء قد أصلح، وأنني لن أواجه أي مشكلة في العودة إلى البيت.

حدق دومينيك فيها لحظة وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة ساخرة:

ـ كنت، طبعاً، أرجو أن أستطيع اقناعك بالبقاء هذه الليلة. ولكن، نعم... لقد اتصلت بمصلحة المياه قبل أن أبدأ بطهي الطعام. ولسوء الحظ، يا عزيزتي أوليفيا، يبدو أنك على صواب. لن يكون ثمة مشكلة في عودتك إلى بيتك الليلة.

عندما نزلت إلى الردهة الواسعة بعد أن غيرت ملابسها وتركت الملابس التي استعارتها مطويّة بعناية في غرفة الضيوف، قالت له:

ـ لقد أمضيت حقاً يوماً ممتعاً. لقد كانت استضافتك لي ملوكية... و... ورغم أنني لم أظن قط أنني سأقول هذا يوماً، يا دومينيك، فقد كان جميلاً جداً أن أراك مرة أخرى.

فقال باسماً بحرارة:

ـ كان يوماً جميلاً حقاً. هل أنت واثقة من أنني لن أستطيع إقناعك بالبقاء هنا الليلة؟.

هزت رأسها بسرعة:

ـ يجب أن أذهب حقاً، لأن علي القيام بأشياء كثيرة ثم...

وتلاشى صوتها حين تقدّم منها، وكذلك ابتسامته وهو يقف ناظراً إليها وعيناه اللامعتان تتأملانها بعنف وحرارة، ما جعلها تشعر بضعف غريب وعدم قدرة على التنفس. حاولت أن تحوّل نظراتها عنه، ولكن بدا وكأن عينيه المغناطيسيتين تنفذان إلى روحها.

وإذا بالصمت في الردهة يصبح عميقاً ثقيلاً، والجوّ خانقاً رهيباً، حتى كادت أوليفيا تشعر به ينبض داخل جمجمتها. لم يلمسها بعد... ومع ذلك شعرت بخفقات قلبها تتسارع، وبالحرارة تسري في شرايينها.

بدا وكأن الزمن نفسه قد توقف. غير أن دقات الساعة العتيقة على الجدار، وأريج الزنابق في الإناء، وصوت خافت بعيد لحركة السير في شارع «كينغزرود»... تبرهن على أن الزمن ما زال يدور خارج هذه البحيرة الناعمة من الضوء الذي ينير هذين الكائنين الجامدين.

ثم تقدم منها، وببطء شديد، أدخل يديه في سترتها المخملية المفتوحة محيطاً بهما خصرها ثم جذبها إليه برقة فائقة.

وإذ غمرها ضباب غريب ووهن خطر، لم تعد تعي سوى ذراعيه المحيطتين بها ودفئه. وأخذت ترتجف بين ذراعيه اللتين احتوتاها بشغف.

تمتم:

ـ يا حلوتي أوليفيا...

ثم أحنى رأسه دافناً وجهه في شعرها. أحسّت بحواسها تخرج عن سيطرتها، وشعرت بأنفاسه تلفح أذنها، وخفقات قلبه السريعة تردد صدى خفقات قلبها.

ـ ابقي معي...

همس بذلك بصوت أبح، قبل أن يعانقها عناقاً متملكاً خارقاً جارفاً.

بدا لها أشبه بصاعقة مفاجئة أو ببركان تفجر في داخلها

***

www.elromancia.com

٥ ـ القلب الخائن

ـ هذا يشمل كل شيء حالياً.

قالت أوليڤيا هذا وهي تراجع الملاحظات المسجّلة على الدفتر أمامها قبل أن ترفع رأسها وتمنح مساعدتها ابتسامة متعبة.

ـ هل حجزت سيارة ليموزين بيضاء لأجل عرس «فينستين»؟

قالت لها مورين:

ـ ما من مشكلة. لقد ساعدتني في ذلك الفتاة التي تعمل في شركة تأجير السيارات المترفة الجديدة. أحب حقاً الأعراس الفرنسية، حيث الطعام رائع والضيوف يستمتعون بوقتهم!.

وافقتها أوليڤيا على ذلك:

ـ أعرف ما تعنينه.

اتكأت إلى ظهر كرسيها وابتسمت للمرأة... ماذا كانت لتفعل في العامين الماضيين لولا معونة «ورين هوارد» وتشجيعها وحماسها، فهي امرأة يمكن الاعتماد عليها كلياً.

لم تكن مورين تتراجع حتى أمام أكثر طلبات الزبائن غرابة. فقد استطاعت مرة أن تقتفي أثر فيل، لأن العروسين قررا مغادرة حفلة زفافهما في هودج على ظهر هذا الحيوان الضخم.

ـ آه! نسيت أن أخبرك بأن أخاك اتصل بك منذ فترة.

ـ هل من خطب؟

فأجابت المرأة بسرعة تطمئنها:

ـ لا، كان مرحاً للغاية. يبدو أنه حصل على عمل يتعلق بتصميم حديقة، وبما أنه قريب من هنا، سأل عما إذا كان بإمكانك مقابلته لتناول الغداء في الأسبوع القادم. وضعت ذلك في مفكرتك يوم الخميس القادم. هل هذا حسن؟.

ـ نعم، حسن جداً.

شعرت أوليڤيا بالراحة لأن أخاها استطاع الحصول على عمل.

لم يكن من الجيد عزو انحراف أخيها بعد دراسته الجامعية إلى المصاعب التي واجهها في الفترة الأخيرة من حداثته عندما أتت زوجة أبيه المخيفة لتزيد الأمور سوءاً إذ أن هناك أولاداً كان ماضيهم أسوأ كثيراً، وقد استطاعوا تذليل كل الصعوبات والعقبات لكي ينجحوا في حياتهم. وبرأيها أن سبب عدم قدرة أخيها على تدبير أموره في الحياة عائد إلى شخصيته غير العملية، ولعل سبب ذلك هو الجينات التي ورثها عن أبيه أكثر منه إلى طفولته.

لقد بذلت أوليڤيا ما في وسعها لمساعدة هيغو ومساندته، وهي التي ضغطت عليه لكي يذهب إلى مركز إعادة التأهيل ليتخلص من مشكلة إدمانه على الكحول، وهي التي دفعت الأجر الباهظ للدورة التعليمية في البستنة وتصميم الحدائق عندما اعترف السنة الماضية بأنه عشق دوماً هذا العمل.

ولكن لا أحد يستطيع التكهن حتى متى قد يستمرّ أخوها مستقيماً. وتنهدت أوليڤيا وهي تدعو الله طالبة الخير.

وعندما وقفت مساعدتها لتعود إلى مكتبها، قالت أوليڤيا بسرعة، وقد عادت من أفكارها:

ـ بالمناسبة، يبدو أن هناك مزيداً من المشاكل بالنسبة إلى عرس «تشابمان ـ هاي».

تأوهت المرأة بشكل مسرحي:

ـ آه، لا. لا تخبريني بأن الصغيرين قد فسخا خطبتهما... مرة أخرى.

فقالت أوليڤيا ضاحكة بأسف:

ـ آسفة، لأن هذا هو ما حصل. جئت إلى المكتب هذا الصباح لأجد مخابرة طويلة من السيدة «هاي» في جهاز التسجيل في الهاتف. أظن أن أفضل ما يمكننا عمله هو أن نرجىء العرس حالياً.

هزت مورين رأسها متهكمة:

ـ ليس هناك لحظة ملل أبداً في عالم هذين (الخطيبين السعيدين)... الحمد لله... هل سارت الأمور بشكل أفضل في عرس «تورنبول» الجمعة الماضية؟.

تمتمت أوليڤيا:

ـ نعم، نعم. كل شيء سار على ما يرام.

وأخذت تعبث بقلمها على المكتب ولكن وجهها أحمرّ تحت نظرات مساعدتها.

فتابعت تقول:

ـ كان مستخدمو فندق كلاريدج في غاية الكفاءة.

ـ عندما كنت أطبع أخبار العرس لصحيفتي «التايمس» و «التلغراف» أدهشني ذلك التغيير المفاجىء في الإشبين، من أين قفز «تنتردن» إلى هذا الدور؟.

فهزت أوليڤيا كتفيها.

ـ كان دومينيك فيتز شارلز صديق العريس في المدرسة.

وأضافت بسرعة.

ـ لقد أنقذ العرس فعلاً إذ حلّ مكان شقيق العريس الذي نُقل إلى المستشفى لإجراء عملية. لهذا، أظن أنّ علينا جميعاً أن نكون شاكرين له.

فقاطعتها مورين:

ـ انتظري. أليس هو ذلك الرجل الساحر الذي يظهر دوماً في المجلات

الاجتماعية، والفتيات الجميلات الشقراوات متهافتات عليه؟

ـ حسناً... ربما. ولكن...

ـ أذكر أنني قرأت مقالة في مجلة «تاتلر». وكانت عن أشهر عشرين أعزب في انكلترا، وكان هو بينهم! يساوي بليون دولار. لم أدهش عندما قرأت كم يساوي، أما بالنسبة إلى النساء الرائعات الجمال اللاتي كان يبدو بينهن مع...

ـ نعم، حسناً، أنا واثقة من أن كل ذلك شيء مهم جداً.

ـ وهل تعلمين أنه من سلالة ذلك الملك العابث تشارلز الثاني؟ من ناحية غير شرعية طبعاً، وأظن نسله هذا كان من وصيفة زوجته البرتغالية... ما كان اسم زوجته الملكة تلك..؟

ـ الملكة «كاترين براغانزا».

أجابت أوليڤيا مستسلمة إلى حقيقة أن مورين عندما تبدأ بالكلام، لا يستطيع أحد أن يسكتها.

ـ هذا صحيح. على كل حال، تقول المقالة إن الوصيفة، ماريا تلك، كانت امرأة قاسية حقاً، إذ حوّلت حياة الملك جحيماً حتى قَبِل أن يمنح ابنه غير الشرعي لقباً ومزرعة واسعة. أتعلمين أن أسرته ما زالت تعيش في تلك المزرعة في إقليم «كنت»، وذلك القصر النورماندي الرائع الجمال؟.

قالت أوليڤيا بفظاظة: «نعم».

ـ حسناً..؟.

ـ حسناً... ماذا؟.

ـ ما شكله؟ أعني شخصياً؟ هيا... امنحي قلبي العجوز المسكين شيئاً من الإثارة!.

طلبت المرأة المسنة هذا بابتسامة عريضة من أوليڤيا التي كانت صامتة بشكل غريب.

ـ مثلاً، هل هو جذاب حقاً كما يبدو في صوره؟

ردت بحدّة:

www.elromancia.com

ـ بحق الله عليك يا مورين! أنا.. أنا كنت مشغولة للغاية عن النظر إلى الإشبين.

كانت مقطبة الجبين قليلاً، فحدقت مورين إليها، فأوليڤيا عادة لا تفقد أعصابها. فلماذا تبدو الآن في غاية القلق والإنزعاج، بعيدة تماماً عن هدوئها واتزانها المعهودين؟

وسألتها باهتمام:

ـ هل تشعرين بأنك بخير؟ أرجو ألا تكوني مصابة بالانفلونزا؟.

ـ لا، أبداً، أنا متعبة قليلاً فقط، وهذا كل شيء. آسفة على نبرتي الحادة.

وابتسمت لها أوليڤيا معتذرة. وقررت أن تغير الموضوع، فسألت مورين عن ملف زفاف الممثلة المشهورة الذي سيُعقد بعد شهرين.

بعد أن أصبحت وحدها، تجاهلت الملف السميك الملقى على مكتبها، واتكأت إلى الخلف وأغمضت عينيها لحظة، متمنية لو أن بإمكانها، بسحر ساحر، أن تمحو كل أثر للعطلة الأسبوعية الماضية من ذهنها.

ولكن، لسوء الحظ، لم تستطع إلاّ أن تستنتج أنها امرأة ضعيفة، واهنة، وسريعة التأثر إلى حد محزن. وإلا بماذا تفسر طريقتها الجنونية في الاستسلام بتلك السهولة لسحر دومينيك عندما حاولت أن تغادر منزله في تشيلسي؟ بقيت متكئة إلى ظهر كرسيها، عاجزة عن محو هذا المشهد الذي لم يفارق ذهنها لحظة في الساعات في الأربع والعشرين الماضية.

ويا لحماقتها عندما ظنت بأنها تسيطر تماماً على نفسها! ويا لغبائها لأنها كانت مسرورة بالبقاء على هدوئها ومودتها أثناء قضائها النهار مع دومينيك.

كانت واثقة من نفسها بحيث لم تتوقع أي مشكلة عندما غيرت ملابسها ونزلت السلم لتغادر منزله ليلة السبت. وحتى عندما رأته واقفاً في الردهة الهادئة الخافتة الضوء.

بقيت تشعر بأنها تتحكم بزمام الموقف. ما أغباها! وما أحمقها! لأنها

ظنت أنها منيعة أمام تلك الجاذبية السمراء، لأنها فقدت كل إحساس بالوقت أو المكان ما إن أخذها بين ذراعيه يشدّها إليه بعنف. كل ما كانت واعية له، هو شوقها إليه وإلى عناقاته الشغوفة، وهكذا استسلمت إلى تلك المشاعر العنيفة التي أخذت تهز كيانها.

ـ أوليڤيا...

كانت يداه حول خصرها تشدانها إليه بعنف. في هذه اللحظات دارت بها الدنيا وتضاعفت خفقات قلبها جنوناً ولكن... ولكن عندما بدأت يداه تطلبان المزيد، انبلجت الحقيقة في ذهنها مخترقة ببطء ضباب هذه المشاعر الهوجاء التي تكتسحها.

أدركت بالغريزة أن عليها أن توقف هذا... لا يمكنها... عليها ألا... تسقط في الشرك المشؤوم الذي سيفسد حياتها. اجتاحتها موجة عنيفة من الخوف والذعر والرعب لأنها أدركت أنها في خطر ساحق من أن تكرر أسوأ غلطة قد تقترفها في حياتها... هذه الموجة ساعدتها على استجماع قوّتها الواهنة ثم دفعت دومينيك بعيداً.

تركها تذهب، متراجعاً هو الآخر عدة خطوات إلى حيث اتكأ على حاجز السلم وأخذ ينظر إليها وهي تسرع بلملمة شتات نفسها.

قال ببطء وبصوت مثقل بالسخرية:

ـ لم يتغيّر شيء بيننا، أنا وأنت، رغم مرور كل تلك السنوات.

وكانت تحدث نفسها بعنف بأن هذا بالضبط ما كانت تخشاه. كانت وجنتاها متوهجتين وهي تتجنب نظراته. غمرها الاشمئزاز من نفسها لسهولة استسلامها لعناقه، وأخذت تحاول بلهفة ترتيب شعرها الطويل المنسدل على ظهرها. ولسوء الحظ، لم تستطع السيطرة على يديها المرتجفتين.

أولاً، كان ذاك العناق الليلة الماضية، والآن هنا.. في الردهة... لم تكن بحاجة أن يقول لها دومينيك أن (مرور السنوات) لم يفعل شيئاً... نعم، لم يفعل شيئاً على الإطلاق في تخفيف جاذبيته الساحقة.

كان الصمت بينهما قد أصبح غير محتمل تقريباً عندما تنحنح أخيراً.

ـ أظن علينا، نحن الاثنين، أن نخوض حديثاً طويلاً جاداً يا أوليڤيا لأن من الواضح أن...

ـ لا.

وشهقت بسرعة وهي تستدير مبتعدة لتلتقط حقيبة يدها وتعلقها في كتفها.

ـ ليس لدينا حقاً ما نتحدث عنه.

وأضافت وهي تدير له ظهرها:

ـ اسمع... لن أرتكب غلطة أندم عليها طول عمري.

قال:

ـ لا تكوني معتوهة بهذا الشكل.

وتقدم منها وأمسك بذراعها لتواجهه.

ـ لا تخدعي نفسك ولا تخدعيني. كلانا يعلم أنك كنت منذ لحظات راغبة فيّ والواضح أنني كنت كذلك. فلماذا تنكرين الواقع؟ لماذا تنكرين أن بيننا رباطاً وثيقاً؟ ربما كان هامداً طول تلك السنوات، ولكنه ما زال حياً بشكل واضح، وهو يشتعل بيننا كلما اقتربنا من بعضنا البعض، أليس كذلك؟.

ـ هذا لا يهمني.

وشهقت عندما اشتدت قبضته على ذراعها.

ـ لا أريد أي علاقة بك، يا دومينيك. دوماً كنت نحساً عليّ، ولهذا، أرجو منك أن تدعني وشأني. اذهب ولاحق إحدى نسائك الكثيرات. وأنا واثقة أن أياً منهن سترحب بك بذراعين مفتوحتين... أما أنا فلا، لأنني، ببساطة، غير مهتمة. صح؟.

فقال دون أن تزعجه كلماتها الفظة:

ـ أي كاذبة أصبحت، يا أوليڤيا؟ يمكنك أن ترفضي الاعتراف بذلك الوثاق القوي الذي يربطنا ولكن ذلك مضيعة ليس إلاّ، وإنكارك لن ينفي

وجوده.

ـ لم أسمع مثل هذا الهراء قط من قبل.

فتابع يقول متجاهلاً احتجاجها كلياً:

ـ وهذا يعني أننا لا أنوي أن أتركك تختفين من حياتي مرة أخرى. وهذا عهد مني.

أقسم بذلك بصوت رزين قبل أن يحني رأسه ليعانقها.

أما كيف استطاعت أن تفلت من قبضته، وتندفع نحو الباب الخارجي تفتحه وتركض خارجة إلى الشارع بأسرع ما تستطيعه، فهذا ما زال ضباباً غائماً في ذهنها.

كل ما استطاعت أوليڤيا أن تتذكره الآن بوضوح، وهي جالسة إلى مكتبها، ورأسها ينبض بالتوتر المؤلم، هو أنها أوقفت سيارة أجرة بسرعة، ثم ألقت بنفسها على المقعد داخلها وهي تقسم على أن السماء ستسقط على الأرض قبل أن تتصل به مرة أخرى.

لن تعود أبداً إلى اقتراف تلك الغلطة الهائلة في الاقتراب من ذلك الرجل الشديد الخطر، دومينيك.

***

صاحت أوليڤيا:

ـ مرحباً، آسفة لتأخري.

ثم أخذت تشق طريقها بين الموائد في ذلك المطعم الصغير الرخيص في شارع «هولند بارك». وأضافت وهي تطبع قبلة سريعة على خد هيغو قبل أن تجلس.

ـ العمل لا ينتهي، كيف حالك؟.

قال بابتسامة عريضة وهو يشعل سيكارة:

ـ لابأس.

وعندما رآها تغضن أنفها لرؤية السيكارة، هز كتفيه.

ـ منذ تركت الكحول، كان لا بد أن آخذ عادة سيئة واحدة على الأقل.

فقالت بمرح، وقد سرّها جداً أن تعلم أنه ما زال ثابتاً على عزمه في ترك الكحول:

ـ لمَ لا؟ الغداء على حسابي.

فقال محتجاً: «لا بأس يا أوليڤيا. يمكنني بسهولة أن أدفع لك ثمن وجبة طعام».

ـ وأنا واثقة من ذلك.

قالت هذا رغم أن الشك تملكها بأن من غير المحتمل أن ينفق نقوده القليلة على طعام جيد مغذٍ، فتابعت تقول:

ـ لكنني تلقيت عملاً جديداً لتوّي، وأنا أريد الاحتفال بذلك. سنطلب أكبر شريحة لحم مع الخضار... أليس كذلك؟.

ضحك وترك أخته سعيدة أن تطلب طعاماً دسماً يقيته أياماً.

ـ والآن، أخبرني عن عملك الجديد.

أخذت تستمع باهتمام وهو يصف بحماسة العمل الذي يقوم به في تصميم حديقة عامة واسعة في المدينة لأجل مخرج سينمائي ثري وزوجته. وقال يعترف مبتسماً:

ـ أعرف أنه ليس عملاً هاماً، ولكنهما راضيان عما صنعته حتى الآن، وقد طلبا مني تقديم تصميمات لحديقتهما في الريف.

ـ هذا رائع.

ـ الأهم من ذلك تقريباً هو أنني شغوف بعملي. فأنا الآن أسعد بكثير مما كنت عليه عندما كنت في المدينة حيث كرهت كل دقيقة أمضيها فيها وأنا أكسب المال.

فقالت:

ـ حسناً، هذا ما ينبغي أن تكون عليه الحياة، أليس كذلك؟ أن تجد شيئاً تحبه وتعمل به.

ـ ماذا عن عملك، يا أوليڤيا؟ أما زلت مسرورة بتنظيم الأعراس أم أن

الضجر تملكك الآن؟.

ـ لا. ما زلت أستمتع به. هذا الوقت من العام حافل بالعمل، لأن عدداً كبيراً من الفتيات يرغبن في الزواج في الرابع عشر من شباط لأنه عيد العشاق.

لقد اعتاد على جمال شقيقته، وكفاءتها الهادئة في معالجة مشاكله، وها هو يشعر فجأة بالذنب لأنه يأخذ مظهرها الهادىء قضية مسلّمة. فهي الآن تبدو متعبة واهنة على غير عادتها، وتحت عينيها الخضراوين دوائر دكناء، ولم تكد تمسّ طعامها حتى... فسألها باهتمام:

ـ هل أنت على ما يرام؟.

ـ نعم، طبعاً! مشغولة فقط وهذا كل شيء.

ـ أظن الأمر أكثر من ذلك. أنا أعرفك جيداً، يا أوليڤيا، ولديّ شعور بأن شيء ما يقلقك هيا، قولي ماذا حدث؟.

قالت:

ـ لا شيء أبداً صدقني.

ثم نهضت عن المائدة وذهبت لدفع الحساب.

لم يصدقها هيغو. هي أخته، وهو يعرفها عنيدة، فإن لم ترد التحدث عن المشكلة، فلن يستطيع شيئاً.

قالت له وهي تطلب القهوة بعد عودتها إلى المائدة:

ـ كنت أريد أن أسألك عن عطلة التزلج.

في كل الأحوال التي مرت بها وبأخيها، تمكنت أوليڤيا من الذهاب معه في إجازة سنوية للتزلج بين آخر شباط وأول آذار، وهو الوقت الوحيد الذي يمكنها التعطيل فيه.

وتابعت تقول:

ـ لا تنسى أنه دورك هذه السنة في حجز مكان الإقامة. أرجو أن تكون مسيطراً على الوضع.

فقال ضاحكاً:

ـ نعم، يا عديمة الثقة!

ضحكت ساخرة:

ـ نعم، هذا حسن! لأنني لم أنسَ بعد المرة الماضية.

وعندما رأته يفتح فمه ليحتج، سارعت تقول:

ـ لا بأس، لا بأس، أعترف بأن المنتجع نفسه كان رائعاً، وقد أمضينا فيه أجمل عطلاتنا. ولكن يجب أن تقرّ بأن مكان الإقامة الذي استأجرته لنا في «ديڤوس» كان مخيفاً.

ـ نعم، حسناً... فكرت في الذهاب إلى مكان أفضل هذه السنة. كنت أفكر في رحلة إلى أميركا...

ـ هذه فكرة رائعة، لكنها ستكلفنا قليلاً، كما أنها رحلة طويلة جداً.

فكرت في أن هيغو قد لا يتمكن من دفع النفقات.

ـ لديّ اقتراح آخر.. ما رأيك بالالتحاق بمجموعة، فنقيم في «شاليه» واحد جميعاً؟

ـ وأنا أطهي لكم وأغسل الصحون؟ دع عنك ذلك..

قالت ذلك وهي تعترض ضاحكة.

ـ صدقني كنت هناك وفعلت ذلك.

وهز هيغو رأسه:

ـ لا. لن يكون عليك أن تفعلي أياً من هذا. منذ أيام كنت أتحدث إلى صديق لي من أيام الجامعة، وهو الآن محام في المركز التجاري. ويبدو أن والديه يملكان «شاليه» واسعاً في «كورشيڤيل». وهو ينوي أخذ مجموعة من ثمانية أشخاص، من ضمنهم شقيقته التي ستقوم بالطهي، وهم سيقيمون في «الشاليه» في بداية آذار. ما قولك؟.

تمتمت تقول بتقطيب خفيف.

ـ حسناً، لا أدري، منطقة «الألب» الفرنسية مزدحمة هذه الأيام، أليس كذلك؟.

هز كتفيه.

ـ ما همّنا ما دام التزلج سيكون رائعاً والإقامة مجانية. وكل ما علينا أن ندفعه هو نفقات سفرنا وثمن الطعام؟ أراها فكرة جيدة.

فقالت وهي تنظر في ساعتها:

ـ سأفكر في ذلك. والآن يجب أن أذهب.

عندما عادت أوليڤيا إلى مكتبها، وجدت نفسها تفكر في أخيها بتفاؤل لم تشعر به منذ وقت طويل. فهيغو يبدو حقاً وكأنه انتصر على إدمانه الكحول... وبدا واضحاً أن صحته تحسنت كثيراً منذ ترك العمل في المركز التجاري.

حان الوقت حقاً لكي تكفّ عن اعتباره طفلاً. ولكن ليس غريباً أن تخاف على أخيها أكثر مما يلزم، فهو قريبها الوحيد، بعد أبيها طبعاً...

وامتلأ قلبها بعطف مفاجىء وهي تفكر في أبيها العجوز المسكين الذي لم يَرَ أحفاده ولم يَعزَّ نفسه في أن لقبه سينتقل إلى الجيل التالي، لكنها غير واثقة مما إذا كان يعلم أن ابنه الوحيد كان مستهتراً.

ولا هي كانت تعلم في الواقع. ذلك أنها، أصلاً، لم تتحدث مع هيغو في الموضوع. وربما من الأفضل ألاّ تخوض في ذلك. فقد كانت تحب أخاها وتريده أن يكون راضياً. وكل ما ترجوه هو أن يجد المرأة التي تدخل الدفء والسعادة إلى حياته.

وهذا كل ما نحتاجه جميعاً... حدثت نفسها بهذا عابسة وهي تفتح الباب وتدخل إلى مكتبها.

ولكن، أن تعثر على ذلك... حسناً، بعض الناس أسعد حظاً من الآخرين، وهذا كل شيء.

آه، لا... لا... لن تفكر في دومينيك فيتز شارلز. يكفيها أن يزورها في أحلامها كل ليلة بقامته الطويلة المتغطرسة. وعليها اللعنة إذا هي سمحت لشخصيته القوية بأن تغزو ساعات يقظتها كذلك. خصوصاً أن ما مرّ بها الأسبوع الماضي كان أشبه بكابوس مروّع، سببه هو طبعاً.

لم يكن جرس الباب يتوقف عن الرنين، وكانت باقات الزهور تصل

www.elromancia.com

الواحدة تلو الأخرى... من دون أي رسالة، طبعاً. لأن دومينيك أذكى من أن يقترف غلطة كهذه.

فبعد سنوات من ملاحقة النساء الجميلات، تعلّم أن من الخطر استعمال قلم وورقة لاثبات العلاقة. لذا لم يكن مع باقات الزهور سوى مغلف صغير يحتوي على بطاقة زيارته مشبكاً مع الأزهار.

بقيت الأزهار تتوافد، ولكنها لم تتلق منه اتصالاً إلا بعد عدة أيام، فقد اختار وقتاً متأخراً ذات ليلة، كانت هي أثناءه لا تتوقع اتصالاً منه أبداً.

ـ بحق الله... كيف تتصل في هذا الوقت المتأخر؟ إنه منتصف الليل تقريباً!...

قالت له هذا بحدة حالما ميّزت صوته، وقد نسيت ما أعدت له بعناية من ملاحظات لاذعة بسبب الانفعال الشديد.

ـ وهل لك أن تتفضل وتكفّ عن إرسال كل تلك الأزهار اللعينة؟.

سألها ببرودة:

ـ ألا تحبين تلقي الأزهار؟

فأجابت بحدة:

ـ طبعاً أحب. لكنني لا أريد ولا أحتاج مئات منها، فإن تراكمها يكاد يطردني من البيت.

قالت هذا وهي تصرف بأسنانها. لكنه كان يستمتع تقريباً بتأجيج نار غضبها، فاكتفى بأن أطلق ضحكة ساخرة ثم سألها متى يستطيع أن يراها، فقالت بفظاظة:

ـ هذا لن يحدث. أظنني أوضحت ذلك تماماً في آخر لقاء لنا.

ـ لقاء؟ صدقيني يا حبيبتي: لا أظن أن كلمة (لقاء) هي الوصف المناسب لذلك الدفء العذب لعناقك ولا للطريقة التي كنت ترتجفين بها بين ذراعي...

فشهقت وقد احمر وجهها، شاعرة بالخزي لتأثير صوته الأبح العميق وهو ينطق كلماته تلك.

ـ بحق الله عليك، يا دومينيك... من غير الممكن أن تقول شيئاً كهذا... لا... ليس بصوت مرتفع... على الهاتف!.

ـ أحقاً؟ في هذه الحالة، يسعدني جداً أن أقوله بيني وبينك شخصياً. ما رأيك في تناول العشاء معي غداً مساء؟

ـ ماذا؟ هل جننت؟ أوضحت لك كل الوضوح أنني لا أريد رؤيتك مرة أخرى أبداً. وبما أنك لم تفهم ذلك، على ما يبدو، الجواب هو لا... لا أريد أي علاقة معك، يا دومينيك.

ثم وضعت السماعة بعنف.

وعلى الفور عاد الهاتف يرن.

لعنت نفسها لأنها لم تحوّل الاتصالات إلى جهاز التسجيل، وصممت أن تدعه يرن حتى يفقد دومينيك صبره. ولكن إما قلّلت من قدرته على الإلحاح، وإما بالغت في تقدير مدى احتمالها، لأنها، عندما وصلت أخيراً إلى حد لم تستطع معه الاحتمال، انتزعت السماعة:

ـ أوليفيا؟

سألته بغضب.

ـ ماذا تريد الآن؟

فقال ببطء دون أثر لأي انزعاج لثورتها هذه:

ـ لا شيء مهم جداً... أريد فقط معونتك لحل مشكلة صغيرة... اهدئي فقط.

تنهدت ساخطة:

ـ آه... لا بأس! ما هي مشكلتك؟

ـ حسناً، ليست كلها مشكلتي أنا، لكنني أريد حقاً أن أعلم لماذا تصرّين على إنكار الحقيقة رغم ما بيننا من انجذاب؟ ولماذا تهربين مني إلى أبعد ما يمكنك؟

فردت عليه بحدة:

ـ كنت أظن ذلك واضحاً. كل تلك الأمور التي حدثت في الماضي...

فقاطعها بهدوء:

- لا يمكننا أن نفعل شيئاً بالنسبة لما حدث في الماضي، فقد فات الأوان، لأن من المستحيل إعادة كتابة التاريخ مهما كانت رغبتنا في ذلك كبيرة. ولا ينبغي لأحد أن يعيش حياته ناظراً إلى الخلف باستمرار، خائفاً من اليوم بسبب ما حدث أمس. هذا ضعف في الشخصية يا أوليڤيا. ولم أعرفك جبانة قط.

أوشكت أن تفقد أعصابها، لذا صمتت عدة ثوانٍ محاولة تمالك نفسها، ثم قالت بوحشية:

- أنا لست ضعيفة الشخصية، وليس جباناً أبداً أن أحاول تجنب شخص مزعج! لديك مئات الصديقات الفاتنات يا دومينيك فادعُ واحدة منهن إلى العشاء.

- أنا لست مهتماً بأي ممن تسميهن (صديقاتي الفاتنات) يا أوليڤيا. ويمكنني أن أقبل رفضك لو كنت مقتنعاً حقاً بأنك تعنين ذلك. لكن كلينا يعلم بأنك كاذبة، أليس كذلك؟

قالت بغضب:

- آه، لا! أنا لا أكذب. وأنت متغطرس بشكل لا يصدق و...

- وكيف أصدقك حين أراك تذوبين بين ذراعيّ بلمسة واحدة مني؟.

تملكها الغضب وأخذت نفساً عميقاً بينما تابع يقول:

- وإذا كان في ما أقوله تخفيفاً عنك، يا عزيزتي، فأنا أيضاً أشعر بما تشعرين به. وإذا كنت تظنين أنك لن تريني بعد...

وأطلق ضحكة خشنة.

- فقد سبق أن أنذرتك تلك الليلة بأنك مخطئة جداً... أليس كذلك؟

وهذه المرة كان دومينيك هو الذي ألقى بالسماعة، حتى قبل أن تتمكن من أن تجيبه.

أخذت أوليڤيا تذرع أرض غرفتها بيأس، مصدومة أولاً من دقة وصفه لتجاوبهما مع بعضهما البعض، وثانياً من ذلك التهديد المبطن في كلماته

الأخيرة. ذلك أن دومينيك كان على صواب تام لأنهما متجاوبان كلياً في مشاعرهما نحو بعضهما البعض.

ولكنها هي أيضاً على صواب، فالطريقة الوحيدة لكي تتخلص من هذا الوضع الخطر هي أن تكون قاسية، عاقدة العزم على عدم رؤيته مرة أخرى. وليس السبب عدم ثقتها به فحسب، بل علمها بأنها ما زالت تحمل آثار ذلك العار والمذلة اللذين شعرت بهما حينما ضُبطا معاً في الماضي. سواء كان ذلك جبناً أم لا، فهي لن تستطيع مواجهة ذلك مرة أخرى.

ولكن ربما من الخطأ أن تخاف من هذا التهديد الفارغ.

جلست خلف مكتبها تؤدي بعض الأعمال. فقد مضى أسبوع على اتصال دومينيك الذي تبعه انقطاع باقات الزهر منه.

لعله تقبّل الأمر أخيراً. وجدت من الصعب أن تنساه، إنما هي عاقلة بما يكفي لتدرك أن الزمن كفيل بأن يشفي أكثر الأحزان إيلاماً. وعليها فقط أن تحاول التركيز على عملها. ومع مرور الزمن ستنساه وستخبو هذه المشاعر التي تشعر بها تجاهه... وإذا كان ذلك الرجل المتغطرس يظن أن ثمة بصيص أمل في أن تغير رأيها، فهو سيغير رأيه حتماً فيما بعد.

***

لم يكن دومينيك فيتز شارلز، «إيرل تنتردن» الرابع عشر، يفكر في شيء بالذات عندما أخذ يرسم على دفتر الملاحظات أمامه بقلمه شارد الذهن... وقد اقتنع تماماً بأن لا شيء يبعث الملل أكثر من اضطراره للجلوس في هذا الاجتماع الفصلي مع وكلاء الأملاك.

كان قصره الذي أنشأه في الأساس، جده، الطريقة الوحيدة للحفاظ على مقتنيات الأسرة، لكي تسلّم إلى الجيل اللاحق. ولسوء الحظ أنه يتلقى دخله من هؤلاء الوكلاء. لذا سيبدو من سوء الخلق، إن لم يكن من العقوق، ألا يظهر اهتماماً في هذا الاجتماع الطويل مع مجموعة من المحامين المسنين.

- . . . . شرط أن توافق على القرار، يا سيدي.

رفع دومينيك رأسه وقد أدرك بسرعة أن استغراقه بأفكاره منعه من أن يسمع السؤال الموجه إليه.

ـ آسف... ماذا كنت تقول؟

ـ كنا فقط نطلب موافقتك، يا سيدي الإيرل على تعيين السيد «تراسكوت» في مجلس الإدارة. إنه شاب لكنه ماهر في عمله وذو خبرة فائقة في حقل ضرائب الأملاك.

ـ آه، نعم. بكل تأكيد.

وافق دومينيك على ذلك قبل أن يأخذ فجأة في التساؤل عما سيحدث لو رفض، ذات يوم، أي من قرارات وكلائه. كان محزناً أن يدرك أنهم سيبتسمون له فقط بتسامح قبل أن ينفذوا ما يريدون، غير عابئين برغبته مهما كانت.

ـ لقد انتهى الاجتماع والحمد لله.

قال هذا وهو يصعد إلى مقعد القيادة من الرانج روفر. ثم صفق الباب خلفه وأضاف قائلاً وهو يلتفت إلى كلبه الأسود الذي كان جالساً بجانبه ينتظر: «كن مسروراً فستعود إلى البيت، يا «دوق»».

كان «دوق» هذا هدية العيد من أخته المفضلة «كوني» التي تعيش الآن في نيويورك على بعد آلاف الأميال.

وكانت هي من أصرّ على أن يطلق اسم «دوق» على الكلب، قائلة له إنه سيستفيد من وجود شخص هنا أعلى منه رتبة.

شغّل دومينيك المحرك ثم عاد فتردد لحظة وسأل دوق الذي كان ينظر إليه بعينين بنيتين واسعتين:

ـ ما رأيك هل ننعطف نحو شارع «هولند بارك» ونحن في طريقنا إلى البيت؟

ثم قال بعد لحظة.

ـ نعم... ربما معك حق. من الأفضل أن أقاوم الإغراء، على أن أحاول التقرب منها بوسيلة أكثر ذكاء.

وابتسم لكلبه، ثم تحرك بالسيارة ببطء في شوارع لندن المزدحمة.

وجد دومينيك أثناء رحلته وقتاً كافياً ليفكر في مشكلته. اتكأ إلى الخلف وأخذ يفكر في تلك المحادثة الطويلة بينه وبين أوليڤيا عندما دعاها إلى الغداء في ذلك المطعم الفرنسي قرب بيته في تشيلسي.

هو يعتبر نفسه رجلاً هادئاً نوعاً ما، وذا نظرة ساخرة إلى الحياة، وقد اعتاد حل معظم المشاكل التي تعترضه، وربما لهذا السبب، يرى علاقته الحالية بأوليڤيا مزعجة للغاية.

لا بد أن هناك طريقة توصله إلى تلك المرأة المسؤولة عن اضطراب نفسيته وتكدير مجرى حياته الهادىء. لم يستطع أن يتذكر أي امرأة أشعرته بمثل هذه الشدة والضيق. ولو فكر جيداً، لأدرك أن عليه أن يكف عن التفكير في أوليڤيا فقد سبق لها أن سببت له في حياته ما يكفي من الإزعاج. وهو إلى ذلك رجل كثير الانشغال يدير مسؤولياته بيد حديدية: العمل أولاً والمتعة ثانياً.. فلماذا سمح لتلك المرأة بأن تشغل باله؟ هذا ما لم يكن يعرفه.

ثم تذكّر فجأة جملة مختصرة أو اثنتين من بين أشياء كثيرة كانا تحدثا عنها أثناء الغداء ذلك النهار.

تملكه الغيظ لعدم تفكيره في ذلك من قبل، ثم طلب رقماً على هاتفه الخليوي بسرعة.

ـ هذا عظيم يا «بيل».

تمتم دومينيك بذلك وهو ينقر بأصابعه على عجلة القيادة بنفاد صبر، مرغماً نفسه على الإصغاء إلى ما كان يقصه عليه صديقه القديم عمّا جرى معه منذ آخر مرة اتصلا فيها ببعضهما البعض، وأخيراً تمكن من أن يقول بصوت عفوي:

ـ بالمناسبة يا بيل. هل تتذكر تلك المشكلة الصغيرة مع أحد موظفيك الذي شككت في أن له دخلاً بالتجسس الصناعي؟ لا أدري إذا كان لديك اسم المفتش الذي حلّ مشكلتك، وعنوانه. إنه معك.. هذا عظيم!.

وابتسم ضاحكاً وهو يخرج قلماً ومفكرة كانا بجانبه، ويدوّن بسرعة اسم ذلك الرجل ورقم هاتفه. وقال:

ـ شكراً يا بيل، إلى اللقاء.

ثم أخذ بسرعة يطلب الرقم الآخر، وبعد لحظات كان يقول:

ـ آه! السيد فوستر. نحن لم نتعارف طبعاً، لكنك سبق أن أنجزت عملاً لصديقي «بيل أندروز»، ولا أدري إن كان يمكنك أن تساعدني في حل مشكلة صغيرة.

وبعد لحظات، كان دومينيك يشعر بالانشراح والتفاؤل.

لقد قال لأوليڤيا إنها ستكون مخطئة كثيراً إن فكرت أنها المرة الأخيرة التي تراه فيها، وهو الآن يحدث نفسه مبتسماً، بأن عليها أن تتذكر شعار أسرته:

(ما أتعهّد به... أنفّذه)!

***

٦ ـ إني أخيرّك فاختاري

تنهدت أوليڤيا بحرقة وهي تنظر من نافذة القطار الذي كان يسرع في منطقة الأرياف الواسعة، متجهاً نحو قمم جبال الألب الفرنسية المغطاة بالثلوج. ما الذي قلب حياتها رأساً على عقب؟

لقد تمزّق هدوء أعصابها المعتاد، وحياتها المنتظمة منذ ظهر دومينيك مجدداً في حياتها.

لقد مضى الآن شهر كامل على آخر اتصال لها مع ذلك الرجل الفظيع. غير أنه لم يساور أوليڤيا أدنى شك في أنه سبب تلك الكوابيس والأرق الذي عانت منه منذ عرس مارك وسارا ريلاند.

والآن، أصبح هيغو هو الذي يتسبب، عن غير قصد، بتمزيق حياتها.

تنهدت أوليڤيا مرة أخرى، وهي تتكىء إلى ظهر مقعدها في قطار «يوروستار».

لم يكن من العدل حقاً أن تلوم أخاها. فقد سنحت له فرصة العمر. وهذا ما أدركته حين اتصل بها وهو في حالة من الإثارة العارمة، يخبرها بأنه مرغم على إلغاء إجازة التزلج... وذلك بعد أن قررا أخيراً الإلتحاق بمجموعة الشاليه في «كورشيڤيل» على جبال الألب الفرنسية.

حدثها هاتفياً:

ـ آسف جداً. ولكن عندما عرضوا عليّ هذا العمل الذي هبط علي من السماء، لم أستطع أن أرفضه. أنت تفهمينني يا أوليڤيا، أليس كذلك؟.

www.elromancia.com

فقالت وهي تكافح لإخفاء خيبة الأمل في صوتها:

ـ نعم.. نعم، أفهمك طبعاً، لم ينته العالم. يمكنني دوماً أن أقوم بإجازة فيما بعد، في الخريف.

ـ انتظري. أنا من سيلغي رحلته، وليس أنت.

ـ لا أريد في الحقيقة أن أذهب في اجازة مع مجموعة من الغرباء، خصوصاً إذا كان معظمهم على معرفة منذ وقت طويل. يمكنك أن تتصور أن هذا سيكون مربكاً نوعاً ما.

ـ نعم، أعلم هذا. ولكن... بصراحة، أظنك ستكونين مجنونة إذا لم تذهبي. يبدو أن الشاليه واسع ومريح للغاية. لقد أخبرني جون غراهام، بأن الشاليه يقع في منطقة معروفة محلياً باسم (نزهة المليونير). وهي لا يمكن أن تكون مكاناً سيئاً.

ـ حسناً.

ـ جون سيتصل بك طبعاً. فإن لم يستطع أن يعطيك غرفة وحدك، فستشاركين الغرفة مع أخته شارلوت، وأنا أضمن لك أنها فتاة حلوة المعشر حقاً.

تمتمت أوليڤيا باحتراس: هممم...

ـ ولماذا تهتمين حتى لو كرهت سائر أفراد المجموعة؟ ففي ذاك المكان أماكن التزلج رائعة حقاً.

بعدما اتصل بها جون غراهام، قررت أخيراً أن تلحق بمجموعة المتزلجين، بمفردها.

إنهم أصدقاء قدماء حسنوا المعشر، هذا ما أخبرها جون به أثناء لقائهما السريع في مقهى قرب محكمة «لو كورت».

ـ وأختي طاهية ماهرة. وإن لم يُعجب أحد بطعامها، يمكنه أن يقصد أحد المطاعم، فهي كثيرة هناك.

لقد أعجبها صديق أخيها الذي سبق أن التقته لمدة قصيرة في زفاف مارك وسارا. عند ذلك شعرت أوليڤيا بمزيد من التفاؤل بالنسبة إلى الإجازة

حين أخذا يتحدثان عن ترتيب المواصلات.

ـ أنا وأختي ذاهبان بسيارتنا إلى الشاليه. لدى أبوي قطعة أو قطعتان صغيرتان من الأثاث وبعض الملاءات يريدان منا أن نأخذها معنا إلى فرنسا. ولسوء الحظ لن يكون لدينا مكان في السيارة لكي نأخذك معنا.

أردف بعد لحظة تفكير:

ـ بصراحة، يا أوليڤيا، ذهابك بقطار «يوروستار» ليس فكرة سيئة. إنه ينطلق من محطة «واترلو» في التاسعة من صباح السبت، ويصل إلى «موتيير» بعد ذلك بثماني ساعات. إنها رحلة سهلة تماماً.

كان واضحاً أن إمضاء بعض الوقت مع جون غراهام يستحق كل هذا الجهد، لأنه يبدو رجلاً مسلياً ويحب هيغو. وعندما أخبرها بأن شخصاً سيستقبلها في محطة «موتيير» ويصطحبها بالسيارة في رحلة تستغرق أربعين دقيقة إلى الشاليه، بدأت أوليڤيا تعتقد أن هذه الإجازة لن تكون كارثة، كما خشيت في البداية.

ولكن، بعد وصولها إلى «موتيير»، وبعد أن أخذت تضرب بقدميها الأرض لتدفىء نفسها، أدركت فجأة أنها اقترفت غلطة فادحة.

ففي خضم ترتيبات العطلة، نسيت أن تسأل جون غراهام كيف ستتعرف إلى الرجل الذي سيستقبلها في المحطة، أو كيف سيتمكن هو من التعرف إليها وسط كل هذه الحشود الذين يدورون حولها باحثين عن مقاعد في الحافلات وسيارات الأجرة.

أخذت تشتم نفسها لحماقتها، ثم قررت الذهاب إلى مقهى قريب لتناول فنجان قهوة حتى ينخفض عدد هذا الجموع بشكل ما، وإذا بها تقفز بخفة وهي تسمع اسمها.

والأسوأ، أنها ميّزت فوراً صوت من ناداها وشهقت لرؤية شخص طويل أسمر يتقدم نحوها.

ـ دومينيك، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لا أستطيع أن أصدق أن هذا يحدث لي.

أخذت تصيح بذلك شاكية بعد ذلك بعشر دقائق بعد أن وضعت أمتعتها في سيارته الرانج روفر الزرقاء الضخمة، بينما جلس دومينيك في مقعد القيادة. وسألها ببرودة وهي تحاول ربط حزام المقعد:

ـ ما الذي لا تستطيعين تصديقه؟

ردت بحدة وعبوس:

ـ خلتني سأحظى بإجازة سارة هادئة فإذا بك تظهر فجأة بسحر ساحر.

فقال ساخراً:

ـ شكراً لكلماتك اللطيفة هذه. حقاً يا أوليڤيا، لم يسبق قط أن تشاجرت امرأة معي بهذا الشكل.

ـ وقد عرفت نساء كثيرات، أليس كذلك؟

كانت تتقاتل مع حزام مقعدها وتشتم بعنف بصوت خافت.

ساد صمت طويل عندما تجاوبت أصداء كلماتها اللاذعة المرّة في أنحاء السيارة المغلقة. وبعد لحظة، وجدته يمسك بذقنها بحزم يدير وجهها إليها، وفي عينيه عبوس:

ـ أنا راغب فعلاً أن أقلّك إلى الشاليه، وفي الطريق سأشرح لك سبب وجودي هنا في فرنسا. لكنني غير مستعد أبداً للقبول بهذا النكد المتعب أو بسوء الخلق والفظاظة. إن الأمر عائد إليك، يا أوليڤيا. أمامك خيار واضح: إما أن تتصرفي كأي شخص مهذب في المجتمع، وإما أن تخرجي من السيارة وإما عليك الذهاب بمفردك إلى الشاليه وإما العودة إلى انكلترا. فما الذي تختارينه؟.

توهجت وجنتاها، وتحولت عيناها عن عينيه العنيفتين ونظراتهما الفولاذية. ولسوء الحظ، كان الحق مع دومينيك فالذنب ذنبها لأنها تتصرف كطفلة أفسدها الدلال.

فقالت بصوت خافت:

ـ أنا... أنا أشعر حقاً بالخزي والحقيقة أنني آسفة. ولكن ردة فعلي تلك جاءت بسبب تأثير الصدمة...

بعدما قالت ذلك، شعرت فجأة بالرهبة لوجود هذا الرجل الفائق الرجولة والحيوية بقربها. كادت تشعر بالقوة والطاقة المتفجرة من جسمه القوي ومن وميض عينيه الذي اخترق عينيها.

أجفلت غريزياً حين اقترب رأسه الأسود بحيث عبقت في خياشيمها رائحة عطره، كما لفحت أنفاسه وجنتها، وازداد التوتر في أصابعه الطويلة السمراء التي ما زالت تمسك ذقنها. دار رأسها ووجدت نفسها تحدق فيه كالمنوّمة وقلبها يرتجف بين ضلوعها.

عند ذلك بدأت اليد القابضة على ذقنها بحزم تتراخى، وأخذت نظرته العنيفة ترقّ تدريجياً وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة:

ـ الأفضل أن نقفل حزام مقعدك، أليس كذلك؟

ومال نحوها يأخذ الحزام من أصابعها المرتجفة ثم يقفله بحزم، ويعود إلى مقود السيارة.

أدارت أوليڤيا رأسها بعيداً، وضاعت نظراتها في الظلام خلف الطريق. ما كانت لتكمل الطريق إلى هذا الجزء من جبال الألب الفرنسية لو لم يكن عقلها في مثل هذا التشتت والدوار.

عليها... عليها حقاً أن تهدأ وتتمالك نفسها. فما زالت تشعر بالدوار والضعف بسبب تسارع الأحداث التي لم تستطع السيطرة عليها.

ألقت من تحت أهدابها نظرة جانبية على جانب وجه دومينيك، الذي كان مركزاً اهتمامه على الطريق بشكل واضح وقد أطبق شفتيه بشدة وانقبضت يداه على عجلة القيادة بحزم.

ولذا لم تجد أي خيار آخر. ستحاول تبديد هذا الجو المتوتر الذي يلفهما ولو أدى ذلك إلى إذلالها، لأنها كلما أسرعت في معرفة ما يجري حقاً، كلما أسرعت في اتخاذ قرار فيما عليها أن تفعله بالنسبة إلى الوضع. فقالت متنهدة:

ـ آسفة لأنني لم أتصرف بشكل حسن الآن. لقد كان عليّ أن أستيقظ باكراً جداً هذا الصباح لكي أدرك القطار في محطة واترلو، وبعد رحلة متعبة

استمرت ثماني ساعات. . . حسناً، أظن أنني متعبة فقط، وهذا كل شيء.

ـ نعم، حسناً، ربما كان ينبغي عليّ أن أتفهم ذلك فلا أستعمل كل تلك الخشونة معك.

قال ذلك والتفت ليمنحها ابتسامة سريعة.

ـ يبدو أننا نفهم بعضنا البعض أحياناً بشكل خاطىء، أليس كذلك؟.

ولوى شفتيه وعاد يركز اهتمامه على الطريق:

ـ ولكن إذا كنا سنمضي الأسبوعين التاليين برفقة بعضنا البعض، فستكون فكرة حسنة أن نعقد هدنة بيننا. . ما رأيك؟.

أسبوعان؟ كانت أوليفيا تعلم أنها متعبة منهكة من أثر الرحلة، لكنها لم تستطع أن تفكر كيف ستواجه صحبة هذا الرجل لمدة أسبوعين كاملين.

قالت بهدوء: «يبدو أنها مصادفة غريبة، أليس كذلك؟. أعني. . . أنك لست هنا فقط في نفس الوقت الذي أنا موجودة فيه، بل تقيم أيضاً في الشاليه ذاته.

ـ نعم، أعرف أنك ترين هذا غريباً نوعاً ما.

قال ذلك ببطء، واهتمامه مركز كل التركيز على الطريق أمامه.

نعم، الأمر غريب. . . أرادت أن تصدق أن المصادفات الغريبة تحصل حقاً في الحياة، لكن هذا أمر سخيف! سألته:

ـ هل تريد أن تخبرني المزيد عن هذا الوضع الغريب؟

ـ بعد لحظة.

أجابها وهو يعدّل من سرعة المساحة عندما أخذ الثلج يسرع في الهطول، ثم قال وما زالت عيناه على الطريق:

ـ نعم. . ليس الأمر، في الواقع بكل هذه الغرابة. كنت في المدرسة وما زلت صديقاً لجون غراهام ولشخص آخر يقيم في الشاليه مع عروسه. لذا عندما شغر مكان في مجموعة جون في اللحظة الأخيرة، وافقت أنا على سد هذا الفراغ.

بدا لها الأمر غير معقول. وشعرت بأنه يخفي مزيداً من الأكاذيب وراء

هذا التعليل البسيط الذي قدمه لها، والذي جاء منه دون تردد.

ـ لم تعلم إذن أن أخي هو الذي لم يستطع وبقيت أنا؟

فقال بعد لحظة صمت:

ـ ربما ذكر شيئاً بهذا المعنى.

ـ هذا ما ظننته. . .

قالت هذا وهي تتمنى لو أنها لم تكن متعبة من السفر ومن التفكير بعواقب وجودها هنا مع دومينيك. وسألته.

ـ منذ متى أنت هنا في فرنسا؟

هز كتفيه وأخرج خريطة وضعها على ركبتها:

ـ قبلك بفترة بسيطة. . . سوف تتولين مسألة اتجاهات الطريق، لذا أرجو أن تكوني ماهرة في قراءة الخرائط.

والتفتت تنظر إليه بارتباك:

ـ هل تعني. . .

ـ أعني أنني لا أعرف عن هذا الشاليه، أو عن الذين يقيمون فيه، أكثر مما تعرفين أنت.

قال ذلك، ثم أوضح أنه جاء أمس فقط، إلى «ريمس» حيث أمضى الليلة الماضية في فندق مريح.

ـ ولكن. . . ولكن لماذا اخترت هذا المكان؟

ـ أذهب عادة للتزلج مرة أو مرتين على الأقل في العام. وفي السنوات القليلة الماضية، غالباً ما ذهبت للتزلج في أميركا وكندا. ولكن مطار «غاتويك» أو مطار «جينيف» أيام السبت في شباط وآذار يعج بحشود المسافرين. هذا عدا عن الإعاقة والتأخير في محاولة الوصول إلى الجهة التي يقصدونها من أوروبا.

قال هذا قبل أن يطلب منها أن تسرع في فتح الخريطة عند الجهة المقصودة، لأنه سيسألها بعد فترة قصيرة عن الاتجاه.

وتابع يقول بينما كانت هي تتصارع مع الخريطة لتثنيها في وضع

www.elromancia.com

مناسب:

ـ ولذا، عندما التحقت بمجموعة جون غراهام، قررت السفر بالسيارة، فليس هناك ما هو أفضل من أن تكون المواصلات جاهزة عند الرغبة... خاصة عندما تكون الإجازة في مكان نجهله.

ما إن أخذت أوليڤيا تركز على المكان في الخريطة، حتى خطر لها خاطر مفاجيء، فالتفتت إليه مقطبة جبينها:

ـ لحظة واحدة. ما دام جون غراهام أعلمك أنني قادمة معكم، فلماذا لم تخبرني بأنك ستنضم إلى المجموعة؟ أعني أنه كان بإمكانك أن تعرض علي أن تقلّني معك.

قال بلهجة بطيئة هازلة.

ـ آه، هذا حقاً أهم سؤال ألقيته عليّ حتى الآن.

ـ إذن؟

هز كتفيه.

ـ دعيني أسألك يا أوليڤيا: لو اتصلت بك لأخبرك بأننا سنمضي معاً الأسبوعين التاليين، وسألتك عما إذا كنت تريدين أن تأتي معي إلى الشاليه في «كورشيڤيل»، فبم كنت ستجيبينني؟.

قالت دون تردد:

ـ كنت سألغي الإجازة على الفور.

فأطلق ضحكة ساخرة:

ـ وأنا توصلت إلى هذه النتيجة في ثوانٍ. وبما أنني علمت أنك أمضيت سنة مرهقة وبحاجة إلى اجازة، فكرت في أن أقل ما يجب عليّ فعله هو ألا أجعلك تلغين إجازتك.

تمتمت وهي تصرف بأسنانها غيظاً.

ـ يا لك من حساس!

والتفتت لتلقي نظرة كراهية على جانب وجهه الوسيم المتغطرس، ولكم اشتعل غضبها عندما رأت شفتيه تلتويان هزلاً.

مضى بعض الوقت عادت بعده تدريجياً إلى السيطرة على غضبها الذي كان يغلي لاكتشافها كم كان سهلاً على هذا الرجل الكريه الجالس بجانبها، التلاعب بها. وعلى كل حال، لم تكن لتستفيد شيئاً من الشجار معه، خاصة والقيادة تزداد صعوبة. كما أنها مسؤولة، بصفتها معه، عن عدم تحويل انتباهه عن التركيز على الطريق أمامه.

أضف أنه لم يكن بإمكانها فعل أي شيء حالياً بالنسبة إلى الوضع. ولكن بعد ليلة تنام فيها مرتاحة، ستتخذ قرارها ولن يمنعها شيء من أن تستقل تاكسي، أو تطلب من أحد أن يقلّها إلى أقرب مطار حيث تعود إلى لندن. ولكن مهما كان غضبها من دومينيك، وهي مستاءة منه جداً في الواقع، عليها أن تنتظر الوقت والمكان المناسبين لكي تعطيه قدراً من اهتمامها.

سرعان ما أدركت أيضاً أنها قررت كذلك أن تكون عاقلة وألا تدخل في مشاجرة مع دومينيك، فالطريق كما بدا لها في الخريطة وعرة بما فيه الكفاية.

ـ علينا أن نتوجّه إلى كورشيڤيل ١٨٥٠.

قال لها ذلك شارحاً أن الرقم المشار إليه هو مقدار الارتفاع بالأمتار، بينما «كورشيڤيل ١٦٥٠ و ١٥٥٠» هما الأقل ارتفاعاً. وقالت وهي تتأمل الخريطة أمامها:

ـ يا له من تعقيد!

وافقها:

ـ الحق معك تماماً.

وللمرة الأولى في ذلك اليوم، بدا عليهما الانسجام التام مع بعضهما البعض. واستمر هذا الوضع حتى أوقف السيارة أمام المكان الذي يقصدانه، وهو شاليه واسع ذو سقف تكاد أطرافه تصل إلى الأرض.

ولكن عندما أخذ دومينيك يتفحص المكان من وراء زجاج السيارة الأمامي، وأنوار سيارته تضيء اللافتة العريضة فوق الباب الخارجي للمبنى، عند ذلك فقط بدا وكأن الانسجام الهش الذي ساد بينهم فترة

قصيرة قد تزعزع.

ـ لا أصدق هذا.

تمتم بذلك قبل أن يلقي برأسه إلى الخلف وينفجر ضاحكاً.

تابعت نظراته، فرأت لافتة كُتب عليها بأحرف سوداء كبيرة «قلبي».

ـ لا أرى ما هو المضحك إلى هذا الحد.

وهزت كتفيها متسائلة عن نوع أولئك الناس الذين يطلقون على منزلهم مثل ذلك الاسم الأحمق الخارج على المألوف.

قال بضحكة ساخرة:

ـ حسناً... يبدو لي... مسلياً للغاية، في ظروفنا الحاضرة.

ثم فتح بابه وقفز إلى الثلج.

قال وهو يدور حول السيارة ليفتح لها الباب، بانحناءة مسرحية:

ـ أهلاً وسهلاً بك يا حبيبتي أوليڤيا ومرحباً بك إلى (قلبي)!

بعد ليلة مريحة، استيقظت أوليڤيا في الصباح، شاعرة بأنها عادت تقريباً إلى حالتها الطبيعية.

اتكأت إلى الوسائد خلفها، وأخذت تنظر ناعسة، إلى الغرفة الواسعة، وبابها المؤدي إلى الحمام. وذلك قبل أن تلحظ أن السرير القائم في الجانب الآخر من الغرفة خالٍ. الواضح أن شارلوت غراهام استيقظت ونزلت إلى المطبخ لتعد طعام الفطور.

ارتسمت شفتيها ابتسامة صغيرة، وتذكرت أوليڤيا الأيام التي كانت فيها صاحبة شاليه مرهقة دوماً بالعمل. لم يكن هذا بالضبط دور شارلوت في هذه الإجازة، طبعاً. ولكنها تعلم أن على من يهتم بالشاليه أن يقوم بالتسوق وطهي الطعام والنهوض قبل الجميع لكي يكون الفطور جاهزاً ليتناولوه قبل أن يصعدوا إلى المرتفعات الثلجية.

ـ حسناً هذا ليس عملي هذه المرة، والحمد لله أنه عمل أخت جون غراهام.

ظلت تحدث نفسها بذلك وعلى فمها ابتسامة عريضة، مستلقية على

السرير المريح، فعادت بأفكارها إلى وصولها مع دومينيك الليلة الماضية.

الحقيقة أن يوم أمس كان يوم المفاجآت. لأنهما ما إن دخلا أكثر الشاليهات التي عرفتها أوليڤيا ترفاً وراحة ودفئاً، حتى تملكها الاستغراب وهي ترى وجهي مارك وسارا الباسمين يرحبان بها، وقتذاك هتفت هي بدهشة:

ـ ما الذي أحضركما إلى هنا؟ خلتكما عدتما إلى هونغ كونغ بعد شهر العسل.

فقالت سارا ضاحكة:

ـ وهذا ما فعلناه. لكن المصرف الذي يعمل فيه مارك انتقل إلى لندن، وبما أنه لن يستلم عمله الجديد قبل ستة أسابيع، فقد قرر قبول دعوة جون غراهام إلى الشاليه.

رمقت أوليڤيا دومينيك بنظرة متجهمة، وقد زمت شفتيها غيظاً، إذ رأت من عينيه الضاحكتين أنه كان يعلم مسبقاً بأن مارك وسارا سيكونان في الشاليه. ولكن هذا أفضل لها، إذ ستكون أسعد بكثير بوجود اثنين من الأصدقاء على الأقل معهم.

ولكن لم تسنح لها فرصة لتبادل عدة كلمات حادة مع دومينيك، لأنها وجدت كأساً من الصودا يندس في يدها قبل أن تتعرف إلى الضيوف الآخرين.

كان هناك رجل طويل أشقر الشعر يدعى جوليان وقد بقي صامتاً طوال السهرة، على عكس صديقته ترايسي، وهي فتاة طويلة رشيقة ورائعة الجمال. ولم تدع كنزتها السوداء المكشوفة شكاً لدى أحد بجمال قوامها.

بدت ترايسي، ببشرتها الرائعة وشعرها الأحمر مذهلة الجمال، على عكس شقيقة جون، شارلوت، التي هي فتاة ممتلئة مرحة، ذات أنف أفطس وشعر بني قصير مجعد، كانت تتقافز في الأنحاء أشبه بجرو صغير، باذلة جهدها ليكون الجميع مكتفياً من الطعام والشراب.

رأت أوليڤيا أن شارلوت، رغم لطفها، ترتكب الكثير من الأخطاء. فقد تعثرت مرة بالسجادة وسقط منها الكأس في المطبخ، وصدمت مرفقها مرة أخرى بكوب من الماء فوقع على غطاء المائدة الأبيض... وأكثر من انزعج من هذه الحوادث العرضية هي ترايسي التي تبرمت كثيراً من غباء تلك الفتاة. ولعل تبرم ترايسي هذا هو ما جعل أوليڤيا تشك في أنها قد تصبح صديقة لذات الشعر الأحمر. ومع أن تلك الفكرة لاحت في ذهنها بشكل غامض، إلا أن الطريقة التي تصرفت فيها تلك الفتاة مع أوليڤيا نفسها، هي التي جعلتها تشعر نحوها بكراهية غريزية. لسبب ما لم تفهمه، بدا أن ترايسي غير مسرورة أبداً بحضور أوليڤيا إلى الشاليه، أما ما الذي أثار في نفس تلك الفتاة مثل هذا العداء، فهو ما لم تكن تعرفه، والواقع أنها كانت متعبة كثيراً الليلة الماضية بحيث لم تهتم بشيء وبما أنها ستخرج للتزلج يومياً، لن تكون مضطرة إلى رؤية ترايسي تلك، التي كانت أكثر اهتماماً بما يحيط بحياة التزلج منها بالتزلج نفسه بما فيه من فوائد صحية.

أما ما ستفعله بشأن العلاقة بينها وبين دومينيك، فهي مشكلة لم تصل إلى حلّ لها بعد.

كل هذا كان وقفاً طبعاً على ما سيفعله الآخرون. فإن كانت لن ترى دومينيك كثيراً، فلن يكون هناك سبب يمنعها من الاستمتاع بإجازتها، ولكن الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي أن تنهض وترتدي ملابسها، ثم تستعلم، ربما من سارا، كيف سيكون الوضع في الشاليه بالضبط.

بما أنها صممت على قضاء الصباح في والتفرج على المدينة، استحمت بسرعة ثم ارتدت بنطلون جينز أسود دافئاً وقميصاً حريرياً أسود طويل الكمين وكنزة خضراء سميكة.

دخلت إلى غرفة الطعام الواسعة فشعرت بالراحة لأنها آخر من نهض من نومه، فمعظم أفراد المجموعة كانوا حول المائدة، باستثناء دومينيك وجون غراهام.

ثم، عندما سارت ببطء نحو المائدة، لاحظت التعبير القلق على وجوه

الجالسين وجوّ الوجوم السائد بينهم.

سألت بهدوء وهي تجلس على كرسي بجانب سارا:

ـ ماذا حدث؟

أجابت سارا:

ـ لقد أخذ جون ودومينيك شارلوت إلى المستشفى. لا أحد يعرف ما حدث بالضبط، ولكن يبدو أن شارلوت خرجت هذا الصباح لتحضر شيئاً من سيارة شقيقها، فانزلقت على الثلج وكسرت ساقها.

هتفت أوليڤيا بصدق.

ـ آه، ما أفظع هذا!

أومأت سارا برأسها، متابعة:

ـ من حسن الحظ أن دومينيك نهض باكراً، فسمع الفتاة تصرخ طالبة النجدة، فأيقظ جون بسرعة وسرعان ما نقلاها بالسيارة إلى المستشفى.

قال مارك من الجهة الأخرى للمائدة.

ـ إنه حظ سيء لعين. مسكينة شارلوت، ويا للحظ العاثر الذي جعل شيئاً كهذا يحدث لها في أول يوم من إجازتها!

وافق الجميع على كلامه، إلا ترايسي التي كانت متكئة إلى مقعدها وقد بان عليها الاستياء البالغ:

ـ حسناً، إن الإنسان يشعر بالأسى على الفتاة ولكن على أي شخص أن يتوقع من تلك الفتاة المعتوهة الثقيلة الحركة حادثاً كهذا.

صحيح أن في كلام الشعر الأحمر شيء من الحقيقة، لكن أحداً لم يتقبل منها ذلك.

قالت سارا وهي تحملق في ترايسي بغضب:

ـ إنه قول مقيت كريه.

وكان واضحاً أن تدخّل مارك الذي أسرع يمسك بيد زوجته عابساً محذراً، هو الذي منعها من قول المزيد.

كان مارك محقاً، ورأت أوليڤيا أن على الجميع تجنب أي جدال أو خصام

في بداية الإجازة، طالما أمامهم أسبوعان يقضونهما معاً.

ولكن ذلك لا يعني أنها لا تكره ترايسي تلك.

قالت أوليفيا:

ـ أظننا جميعاً بحاجة إلى فنجان من القهوة الثقيلة، أليس كذلك؟

ارتفعت كلمات الاستحسان، لرأيها هذا، فكان أن نهضت، متجهة إلى المطبخ.

الواضح أن المسكينة شاروت أصيبت بذلك الحادث قبل أن تعدّ الفطور، وما جعل أوليفيا تأخذ وقتاً في فتح الخزائن بحثاً عن القهوة وملحقاتها. وأخيراً، نجحت في وضع كل شيء على الصينية. وكانت على وشك أخذها إلى غرفة الطعام عندما سمعت باباً يُصفق وأصواتاً تعلو في الغرفة المجاورة.

وقفت في عتبة المطبخ حاملة الصينية، وأخذت تحدق إلى الغرفة حيث كان دومينيك واقفاً يعلمهم باختصار عن حالة شارلوت.

قال:

ـ لم تكسر ساقها.

فاستُقبلت كلماته بهمهمات ارتياح.

ـ ولكن أنا آسف إذ عليّ أن أخبركم أن لدى شارلوت مشكلة حقيقية في كاحلها، وأنا غير واثق مما إذا كان كسراً بسيطاً أو كسراً مضاعفاً لأنهم ما زالوا يصورونها بالأشعة. ولكن هناك كثير من العظام الصغيرة في ذلك الجزء من الجسم، ومن المهم جداً أن يُضبط وضعها بدقة، ولذا بقي جون بقرب شقيقته بانتظار الجرّاح.

ولأن دومينيك لم يستطع الإجابة عن الأسئلة التي أخذت تنهال عليه، اكتفى بهز رأسه.

ـ أنا حقاً لا أدري إلى متى ستبقى الفتاة المسكينة في المستشفى ولكن من المؤكد أن ذلك سيطول عدة أيام. وحتى لو عادت إلى الشاليه علينا الاعتناء بها بشكل جيد، إذ لن تستطيع أن تلقي ثقلاً على ذلك الكاحل.

الصمت الطويل الذي تبع تنبؤاته الكئيبة، اخترقه أخيراً صوت ترايسي الثاقب المتذمر:

ـ إنه لنبل حقاً أن نشعر بالأسى على تلك الفتاة الغبية شارلوت. ولكن ما أريد أن أعرفه هو... من عليه أن يقوم بالطهي الآن؟.

* * *

www.elromancia.com

٧ ـ على جناح الأحلام

إذن . . . ما الجديد غير ذلك؟ أخذت أوليڤيا تفكر بذلك عابسة، وهي تقف أمام الحوض في المطبخ تقشر كومة بطاطا.

منذ اللحظة التي طلبت فيها تلك الفتاة الأنانية ترايسي، أن تعلم من أين ستأتي الوجبة التالية، رأت أوليڤيا أن كل السيناريو يمثل أمامها.

لم تكن بحاجة إلى أن تسمع سارا تقول وهي تلهث:

ـ آه! أرجوكم. لا تطلبوا مني أن أتولى الطهي. فقد تعلمت للتو كيف أسلق بيضة.

لتعرف أنها وقعت في الشرك وحكم عليها مرة أخرى أن تضع مئزراً وتستلم دور الطاهية في شاليه (قلبي).

ولكن هذا لا يعني أنها استسلمت دون قتال، طبعاً!

عندما أثبتت ترايسي أسوأ مخاوفها، برفضها المطلق حتى دخول المطبخ، تقدمت أوليڤيا إلى الأمام لتضع صينية القهوة على المائدة قبل أن تضع يديها على وركيها وتنظر جادة إلى أفراد مجموعة الشاليه، ثم تقول بحزم:

ـ ما من مشكلة بالنسبة إلى طاهٍ، فهل منكم من يعرض أن يقوم بالطهي، يا رجال؟

لكن مارك الذي أدار عينيه رعباً، أسرع يحتج قائلاً إنه ليس أفضل من عروسه بالطهي. بينما جوليان، الغريب تماماً عن العالم الناطق، حدق إليها بصمت، ثم هز رأسه ببطء.

أمّا دومينيك. . . وهو الشخص الوحيد في الغرفة الذي يعرف عن خبرتها في الطهي، فقد اختار أن يحتفظ بذلك لنفسه. ولكن عينيه الرماديتين اللتين ومض فيهما الهزل فضحتا معرفته بالمأزق الذي تواجهه، ثم قال برقة:

ـ يا عزيزتي أوليڤيا، أنا متلهف طبعاً للمساعدة قدر إمكاني. خصوصاً وأنا واثق من أنك لم تنسي روعة البيض المقلي الذي أعدّه.

لم تستطع أوليڤيا أن تمنع احمرار وجهها لذكرى تلك الليلة التي أمضتها في بيته، فأخذت تحملق فيه بينما التفت إلى أعضاء المجموعة الآخرين، وقال لهم:

ـ إن البيض المخفوق المقلي الذي أعدّه لذيذ للغاية، ولكنه لسوء الحظ الطبق الوحيد الذي أستطيع طهيه. فإن لم يكن لدى أحد مانع من تناوله عند الفطور والغذاء والعشاء في الأسبوعين التاليين فسيسرني طبعاً أن. . .

قال مارك ضاحكاً:

ـ شكراً يا دومينيك، لكننا نفضلّ ألا نقبل عرضك هذا.

وأخيراً وقد أدركت أن لا خيار لها في الأمر، وافقت أوليڤيا على أن تتسلّم واجبات شارلوت، ولكن ليس قبل أن تنبه الجميع إلى أنها غير مستعدة للتضحية بإجازتها كلياً لأجلهم.

ـ الطهي شيء، وغسل الأطباق والتنظيف هو شيء آخر. فإن توقعتم أن أنظف وأرتب بعدكم فعليكم أن تفكروا مرة أخرى. فليس كثيراً عليكم أن ترتبوا غرفكم، وأن تمسحوا الغبار وتكنسوا غرف الطابق الأسفل. ما قولكم؟

كان الجميع مسروراً لأنها تكفلت بالطهي، لذا وافقوا بكل سرور على الشروط التي فرضتها عليهم.

بما أن دومينيك ذهب إلى المستشفى مع جون للاطمئنان على حالة شارلوت، وسارة وزوجها إلى المدينة لاحضار بطاقات التزلج للجميع، فقد بقيت ترايسي وجوليان لتنظيف المكان هذا الصباح.

لكن لم يبد أن شيئاً من العمل قد أنجز. فجوليان اختفى عن الأنظار، وترايسي انشغلت بطلاء أظافر قدميها في غرفة الجلوس الواسعة. فكان واضحاً لأوليڤيا أن حمراء الشعر الجميلة ستكون شوكة في الحاصرة.

والواقع أن الوقت الوحيد الذي كانت ترايسي تبدو فيه مشرقة مفعمة بالحيوية، هو عندما يكون دومينيك موجوداً، فترفرف أهدابها وترفع عينيها إلى ذلك الرجل الطويل الأسمر الوسيم، ثم تحتك به بشكل عفوي كلما استطاعت. ولكن كان من الصعب التأكد ما إذا تمكنت حمراء الشعر تلك من اجتذاب دومينيك أم لا، فملامحه كانت دائمة حذرة جامدة.

ـ تلك الفتاة فاسدة الخلق.

قالت سارا ذلك شاكية، عندما لحقت بأوليڤيا في المطبخ الليلة الماضية، تعرض معونتها في اعداد العشاء:

ـ الطريقة التي تتهافت بها عليه تثير الاشمئزاز حقاً. وأنا لا أفهم لماذا يقبل جوليان بسلوكها هذا.

أجابتها أوليڤيا.

ـ ربما يحسب أن نصف رغيف أفضل من لا شيء.

تمتمت سارا عابسة:

ـ ما أفظع هذا! مسكين جوليان.

بدا على سارا الفزع لفكرة وقوع أي شخص في فخ علاقة من هذا النوع، وأضافت:

ـ لا بد أنه وضع دقيق بالنسبة إلى دومينيك!.

تمتمت أوليڤيا وهي تنحني لتنظر في الفرن:

ـ بإمكانه أن يعالج الأمر.

ـ من الواضح أن ترايسي مجنونة بدومينيك. ولا بد أنك رأيت مثل هذه الأمور من قبل. أتظنينها ستفلح في اغوائه؟.

ـ ليس لديّ فكرة.

نالت أوليڤيا هذا، وقد آلمها الإحساس أن هذه الفتاة تعاملها

وكأنها (امرأة كبيرة السن).

رباه، إنها في الثامنة والعشرين فقط، وهي ليست أكبر من سارا التي تكلمها وكأنها كبيرة في السن بحيث لم يخطر في بالها قط أن دومينيك هو منجذب إليها، هي العجوز.

كانت أوليڤيا تحاول الاعتياد على هذه الصورة الجديدة... صورة اقترابها من متوسط العمر، عندما بدا واضحاً أن سارا غير مستعدة لترك هذا الموضوع.

ـ حسناً، برأيك هل ستغوي ترايسي دومينيك؟.

ـ من يعلم؟ إن لم تستطع، فلن يكون السبب افتقارها إلى المحاولات.

تنهدت العروس الصغيرة وهزت رأسها:

ـ أنا لا أفهم الرجال. من الواضح أن ترايسي غبية جداً رغم قوامها الرائع الجمال. فلماذا يريد أي رجل أن يتعلق بامرأة لا يمكنها التفكير سوى في الجنس وحده؟

شخرت أوليڤيا ساخرة قبل أن تدير عينيها إلى السقف، فاحمرت سارا خجلاً، قائلة:

ـ نعم، إنه سؤال سخيف مني، أليس كذلك؟ لا أحد يرفض صندوق شكولا يُقدم إليه مجاناً، أليس كذلك؟ الحمد لله أن مارك لم يعجب تلك المرأة الفظيعة.

وجدت أوليڤيا أن لا فائدة من بعث القلق إلى قلب سارا بقولها إن ترايسي قد تحوّل اهتمامها إلى الرجل الذي يليه في الوسامة، إن لم تنجح مع دومينيك. وفكرت أوليڤيا عابسة، أن دومينيك الذي تعرفه جيداً قد يروق له قضاء وقت ممتع مع ترايسي التي يبدو أن فتحة ثوبها تزداد اتساعاً كل يوم.

ولكن عندما انشغلت أوليڤيا بتقشير البطاطا، قررت أنها لا تريد التعمق في مشاعرها المعقدة المتشابكة نحو دومينيك. لقد صدمت عندما

www.elromancia.com

أدركت أن الغيرة تنهش نفسها كلما اضطرت إلى رؤية محاولات ترايسي لإغراء دومينيك.

من الأفضل أن تركز على طهي اللحم في القدر وغمره بالصلصة البيضاء، وتحضير حلوى بزبدة اللوز.

أنهت أوليڤيا تقشير البطاطا وكانت تغسلها في الحوض عندما كادت تقفز من مكانها لأن ذراعين قويتين التفتا حول خصرها.

شهقت:

ـ رباه، لقد أفزعتني.

كادت المفاجأة تقطع أنفاسها وهي تميل إلى الخلف على دومينيك الذي كان يحشرها الآن بينه وبين الحوض.

ـ ما الذي تفعله في زحفك علي بهذا الشكل؟

ـ هس... كنت أسير على أطراف أصابعي حول المنزل لأتجنب ترايسي. بصراحة، يا حبيبتي، تلك المرأة تخيفني!

ـ آه! أحقاً؟.

وضحكت ساخرة.

ـ لم يبد عليك الخوف الليلة الماضية!

قالت هذا قبل أن تستدرك بسرعة أن أي إشارة إلى غضبها لرؤية التصرفات الوقحة لحمراء الشعر تلك، قد تعطيه فكرة خاطئة. فهي لا تريد أن يظنها تغار عليه أو تهتم لما يحصل بينه وبين ترايسي.

ولكن لسوء الحظ! بدا أن لديه قدرة على قراءة الأفكار، فقال لها:

ـ لا حاجة بك للغيرة، يا حبيبتي! صدقيني... لا يمكن أبداً أن ألمس تلك المرأة.

ردت عليه بحدة:

ـ وما الذي يجعلني أغار؟

كانت ترتجف بشكل لا إرادي بسبب احتضانه، وتابع يقول وهو يضع ذقنه على رأسها ويحدق من النافذة:

ـ على كل حال، أنا لست هنا لأتحدث عن ترايسي. هذا نهار صاحٍ رائع. ومنحدرات الوادي تبدو مغرية للغاية، أليس كذلك؟

نظرت أوليڤيا إلى المنظر الرائع أمامها الذي يشبه صورة على بطاقة بريدية، حيث الثلوج تغطي الجبال وأغصان أشجار الصنوبر. ثم حدثت نفسها بأنه على حق.

كانت مسحورة بالمنظر البادي أمامها، ولكنها عادت إلى الحاضر فجأة حين اشتدت ذراعا دومينيك حول جسمها ودفن وجهه في شعرها.

ـ هيا، دعينا نخرج من هنا ونذهب للتزلج.

ـ لا أستطيع، لم أنهِ إعداد عشاء الليلة، ثم...

ـ إلى جهنم بكل هذا، يمكنهم أن يهتموا بالأمر. فليذهبوا إلى مطعم. وطبعاً إذا أنت أصريت على البقاء هنا في المطبخ...

أضاف بصوت أبح وهو يمرّر يديه على كتفيها ويتابع:

ـ عندئذٍ لن أستطيع مقاومة الإغراء في أن أقدم على ما أريد و...

فشهقت:

ـ لا بأس. لا بأس. امنحني عدة دقائق فقط لأرتدي ملابس التزلج.

قالت هذا بسرعة وهي تتملص من ذلك الشخص الطويل الذي كان يسمرّها إلى الحوض.

قال بهمس:

ـ لا يهمني كم تمضين من الوقت لارتداء ملابسك طالما ستتسلل من البيت دون أن تنتبه ترايسي. قد لا تصدقين ذلك، لكنني عندما تسللت بهدوء ماراً بباب غرفة الجلوس المفتوح كانت تلك الفتاة الفظيعة تصبغ أظافر قدميها بلون أزرق.

أسرعت أوليڤيا إلى الطابق الأعلى، محاولة ألاّ تشعر بالذنب لتركها واجبها في المطبخ، مقتنعة بأنهما لن يمكثا في التزلج وقتاً طويلاً، وهكذا سيكون أمامها وقت طويل يكفي للاستمتاع بالتزلج وإعداد العشاء.

بما أنها المرة الأولى التي يتزلجان فيها هذا العام، قررا ألاّ يجهدا نفسيهما

كثيراً وألا يقوما بقفزات صعبة.

ومع ذلك، اتضح على الفور لأوليڤيا أن دومينيك كان حقاً متزلجاً من الدرجة الأولى، وسرّت عندما مدح هو أيضاً، قدرتها على التزلج. وقال باسماً عندما وقفا يلتقطان أنفاسهما أواخر النهار.

- إننا حقاً منسجمان. هيا! سأسبقك إلى سفح الجبل.

صاح بهذا دون أن يعطيها فرصة لتجيب وانطلق إلى الأسفل.

نادت بعد ذلك بوقت طويل.

- كان ذلك رائعاً.

وقفت فجأة بجانبه فسبّب عنف حركتها تلك سحابة صغيرة من ذرات ثلجية أحاطت بقوامها الرشيق فبدا بديعاً للغاية. قال مبتسماً ابتسامة عريضة:

- وكذلك أنت.

وأخذ ينظر إلى جسمها الرشيق في بذلة التزلج الخضراء العصرية الرائعة التي تماثل بلونها لون عينيها المتألقتين. وكانت وجنتاها الشاحبتان بطبيعتهما قد توهجتا من الهواء النقي والرياضة. بدت فاتنة رائعة بحيث لم يستطع المقاومة، فأخذها بين ذراعيه معانقاً إياها عناقاً خاطفاً قبل أن يضحك ويبعدها عن طريق مجموعة من المتزلجين العديمي الخبرة الذين كانوا ينحرفون على الجبل نحوهما بشكل خطر.

شعرت بأنها تمضي أجمل أوقات حياتها، ولم تنتبه إلى مضي الوقت إلا بعد أن بدأ ضوء النهار يتلاشى، فنظرت إلى ساعتها، شاعرة بالذنب.

قالت لدومينيك وهي تتنهد بأسى:

- عليّ أن أعود، فقد تأخرت أكثر مما كنت أنوي، ولن يجهز العشاء ولو بدأت فيه الآن إلا في وقت متأخر.

- حسناً، هذا سيكون من سوء حظهم فقط، لأنني حجزت مائدة لنا نحن الإثنين في مطعم يقدم ثمار البحر. وإياك أن تجادليني يا أوليڤيا، فأنا هنا في فرنسا فقط لأنني أريد أن أمضي وقتاً معك. وعليّ اللعنة إذا تركتك

مأسورة في المطبخ، بينما بإمكاننا الاستمتاع بصحبة بعضنا البعض.

- لكنني لا أستطيع...

فرد عليها بحدة:

- بل تستطيعين ذلك طبعاً! لن يموتوا جوعاً، فهناك كثير من المطاعم في المدينة وحولها، نال اثنان على الأقل جوائز لجودة الطعام فيهما. ولهذا لن أشعر بالأسف أبداً على بقية المجموعة، ولا ينبغي عليك ذلك أيضاً.

عندما رأت هذا التصميم القوي على رغبته في الاستمتاع بصحبتها.. تساءلت أتراه حقاً التحق بمجموعة المتزلجين تلك ليكون معها؟ ووجدت أوليڤيا نفسها توافق بضعف على أن... الآخرين في الشاليه قادرون على رعاية أنفسهم.

- حسناً، والآن وقد اتفقنا على هذه النقطة الهامة، أظن علينا الآن أن نجد مكاناً هادئاً نستريح فيه قبل العشاء، أليس كذلك؟.

قال ذلك وهو يساعدها على نزع جهاز التزلج، قبل أن يمسك بيدها بحزم ويعودا إلى السيارة.

- كان ذلك رائعاً.

تنهدت أوليڤيا بسعادة وهي تضع الشوكة والسكين من يدها على الصحن أمامها وهي تهز رأسها.

- لا يمكنني أن أتناول المزيد. أريد قهوة فقط من فضلك.

قال ببطء:

- لقد استمتعنا كثيراً هذا النهار، أليس كذلك؟

ثم اتكأ إلى الخلف مبتسماً للفتاة الجالسة أمامه على المائدة.

أومأت برأسها:

- نعم، هذا صحيح. وكان الحق معك. ليس هناك ما يجعلني أعتقد أن عليّ أن أطهو للجميع.

ومع ذلك، فقد اعترفت لنفسها بصمت، بأنها لولا مساندة دومينيك

القوية لها، لما استطاعت استجماع شجاعتها لتخبر أعضاء المجموعة في الشاليه بأن يرعوا أنفسهم.

وكان هو قد أعلن لهم بصوت حازم بعد أن عادا إلى الشاليه.

ـ سآخذ أوليڤيا إلى الخارج للعشاء، ولهذا عليكم جميعاً أن تتدبروا أموركم. وأنت...

وأشار باصبعه إلى ترايسي وأردف:

ـ يمكنك أن تهزي جسدك الكسول وتتحركي هنا. حسناً؟ ماذا تنتظرين؟

أضاف ذلك عندما أخذت الفتاة تحدّق إليه بذهول. كان واضحاً أن أحداً لم يكلمها بهذه اللهجة منذ وقت طويل.

ـ هناك مئزر خلف باب المطبخ، أقترح أن تذهبي إلى هناك وتضعيه حولك ثم تبدئي باعداد العشاء.

لم تعرف أوليڤيا كيف استطاعت أن تبقي وجهها رزيناً. وهذا ما فعله سائر أفراد المجموعة الذين تصنعوا الرزانة مثلها حين ألقت ترايسي نظرة فزع على ملامح دومينيك الآمرة المتغطرسة، ثم أسرعت هاربة من الغرفة، وصحب دخولها إلى المطبخ عدة ضربات عنيفة نتيجة قذفها قدور الطبخ بغضب في أنحاء المطبخ.

وعلى المائدة في المطعم، قالت أوليڤيا بابتسامة عريضة:

ـ لا أجرؤ على التفكير في ما ستقدمه ترايسي للعشاء الليلة. والحق يقال، كنت عنيفاً معها قليلاً.

فرد عليها بحزم:

ـ هراء. هذا سيغيرها. والواقع أن جون سيعيد شارلوت إلى انكلترا غداً، ما يعني أن شخصين سينقصان من المجموعة.

هتفت:

ـ آه، رباه...

ونظرت إليه بذعر.

ـ لقد نسيت كل شيء عن المسكينة شارلوت. لماذا تصرفت أنا بهذه القسوة و...

ـ استريحي! لقد زرت الفتاة المسكينة مرتين على الأقل، وهذا أكثر مما فعله الآخرون.

ـ لكنني آسفة جداً عليها.

كانت تشعر بالذنب وتخشى أن تكون مقصرة في حق شارلوت.

ـ هل كاحلها أسوأ حالاً؟ لهذا سينقلها جون إلى الوطن؟

ـ لا. الجراحون هنا معتادون على مثل هذا النوع من الكسور ولا يبدو أن هناك مشكلة.

وسكت ريثما رفع النادل الأطباق الفارغة، ثم عاد بالقهوة. فتابع يقول:

ـ كما كنت أقول، أظن أن جون وشارلوت قررا أن لا فائدة من عودتها للإقامة في الشاليه.

وبدت نبرة ساخرة في صوته وهو يردف:

ـ إنه حتماً غير مستعد لترك شارلوت تحت رحمة ترايسي. ويجب أن يكون معها أحد في النهار وإلا ماتت سأماً، وهذا هو سبب قرارهما العودة إلى لندن.

ـ وهل جون مصمم على العودة إلى الشاليه من لندن؟

ـ لا أظنه قرر ما سيفعل بعد. ولكنه على الأرجح سيعود مرة أخرى في آخر أذار... وقد يطلب من مارك وسارا أن يرافقاه أيضاً.

ـ أظنهما صديقين قديمين له.

ـ نعم، جون ومارك كانا معاً في المدرسة، معي، طبعاً. ولكن لا أحد منا يعرف جوليان جيداً... وكلنا يظن أنه معتوه لأنه يقبل بتصرفات ترايسي.

ـ في الواقع...

تمتمت أوليڤيا بذلك متجنبة نظراته، فراحت تنظر إلى المائدة وهي تخطط

أشكالاً بطرف ملعقة القهوة.

- لا بد أن تعترف بأنها جذابة للغاية.

فضحك ساخراً.

- قد تكون جذابة. لكنني كبير بما يكفي لأدرك أن ترايسي مزعجة كثيراً وهذا يذكرني بشيء أريد اخبارك به هذا المساء.

رفعت عينيها بسرعة فقابلتا عينيه:

- عن ترايسي؟

قال ضاحكاً:

- لا. أيتها المعتوهة. لا يهمني أمر تلك المرأة أبداً. أريد أن أتحدث عنا، أنا وأنت.

وتردد لحظة لينظم أفكاره قبل أن يميل إلى الأمام ويضع يده على يدها وهو يقول بهدوء:

- لا أريد أن ألحّ في العودة إلى الماضي الذي أعتبره مات ودُفن. لكن كلينا يعلم أن الحب اشتعل في قلبنا لمدة قصيرة جداً في الماضي، عندما كنت أنت في الثامنة عشرة، ولم أكن أنا أكبرك بكثير. كنت في الثالثة والعشرين وهو وقت تلقي دروس الحياة. والآن، بعد مرور عشر سنوات، كبرنا وتبدلنا وتغيّرنا والواقع أننا لم نكبر في العمر فقط بل تحوّلنا أيضاً إلى شخصين مختلفين كلياً.

- هذا... يبدو افتراضاً معقولاً.

وافقته على ذلك، وهي تحاول ألا تدع دفء يده التي تمسك بيدها يشتت تفكيرها.

- وهذا هو السبب في حضوري إلى هنا، إلى جبال الألب الفرنسية لأمضي أسبوعين معك يا أوليفيا. أنا أراك جذابة جداً وهذا عامل مهم في علاقتنا، خاصة أنه لا يمكنني ابقاء يدي بعيدة عنك! ولكن إذا كان الرجل يرغب في امرأة ما، فهذا لا يعني أن...

وتردد لحظة:

- حسناً، فلنقل إن ذلك ليس أساساً قوياً لصداقة ثابتة دائمة. وهذا ما أريده، يا أوليفيا. وأرجو أن توافقي على أن تكون الأيام المقبلة فرصة جيدة لكي نتعارف مرة أخرى، بعيداً عن العمل والمسؤوليات.

- نعم، حسناً...

ونظرت إليه من بين أهدابها بخجل، قبل أن تخفض بصرها إلى حيث كانت يدها في يده، ثم قالت بهدوء:

- هذا لا يبدو بعيداً عن المنطق.

عندما عادا متأخرين إلى الشاليه، واكتشفا أن كل الأضواء مطفأة ورفاقهما نيام في غرفهم، قال دومينيك على الفور:

- أتعلمين؟ أنا مضطر إلى وضع كرسي لتثبيت الباب لأمنع ترايسي الشرهة من الدخول.

- أنت لا تعني...؟

ونظرت إليه مصعوقة لا تكاد تصدق أن تلك الفتاة، حتى في هذه الأيام، قد تقدم على اقتحام غرفته.

قال ضاحكاً:

- بل أعني، بكل تأكيد!

وقرّر ألا يخبرها بأنه هذا الصباح اضطر إلى طرد حمراء الشعر تلك من الحمام حين كان يحلق ذقنه. وكان الحمام ضيقاً جداً، وأمام كل ذلك الاغواء المعروض أمامه وعدم وجود فسحة لاستعمال اللباقة، وجد نفسه مضطراً إلى ذلك.

- آه، إذن عليك أن توصد الباب جيداً.

قالت ذلك وهي تحاول أن تحتفظ بابتسامة هادئة رزينة، رغم أن ساقيها كانتا ترتجفان بوهن وقد تصاعدت خفقات قلبها.

قال:

- هذا صحيح تماماً

ثم شدّها نحوه يحاول أن يعانقها ليسكت كل احتجاج قد يصدر عنها.

وكما كان يحدث في كل مرة، وجدت نفسها بين ذراعيه اللتين تحتويان كل السحر والفتنة اللذين عرفتهما في عناقه على الدوام. إلا أن مشاعرها الآن.. بعدما أصبحت راشدة أصبحت أعمق وأعنف، كما أن عناقه الذي بدأ رقيقاً أصبح الآن أكثر تطلباً وتملكاً.

شعرت وهي متشبثة بوهن بكتفيه العريضتين، بأنها تكاد تذوب ذوباناً وقلبها يرفرف بين ضلوعها... وعندما حدّق إليها بدت السعادة على ملامحه، ما جعلها تذوب تحت فيض الحب الذي شعرت به.

رفعت ذراعيها من جديد تلفهما حول رأسه الأسود الشعر.

قال متأوهاً:

- يا حلوتي الجميلة أوليڤيا...

ثم عاد يعانقها بقوة فارتجف كيانها وكأنها وقعت في قبضة الحب الأزلية، الحب الذي لا يسعنا التحكم به.

همس بصوت ثقيل ممزق:

- أوليڤيا.

وعندما أصبح التوتر المتزايد أكثر مما تستطيع احتماله، حاولت الابتعاد. فالبحر الذي أخذت أمواجه ترتطم بها بدأ يهدّد كل المبادىء التي عاشت عليها يوماً، أما هو فاحترم رغبتها في الابتعاد عنه، لكنه لم يتركها تبتعد كثيراً بل جلس وأجلسها قربه محيطاً رأسها بذراعه، ووجهه مدفون في شعرها البني - الذهبي المعطر، وهمس في أذنها بكلمات الحب والحنان الرقيقة الناعمة. عند ذلك أدركت أنها لم تشعر قط بمثل هذه السعادة وأنه، مهما حدث في المستقبل، سيبقى حبها لهذا الرجل أصيلاً كما كان دوماً.

بدت الأيام العشرة التالية، وكأنها امتزجت ببعضها البعض في ذهن أوليڤيا، مكوّنة جدولاً متألقاً من السعادة والحب. كانت فترة غير عادية حقاً، كما قال دومينيك، وهما يفسحان مجالاً لهذا الحب الوليد بينهما ولكم كانا مستمتعين بتعرف أحدهما إلى الآخر وإلى أذواقه في كل شيء ولكنهما لم

يتجاوزا الحدود التي رسمتها أوليڤيا.. وهو احترم هذه الحدود مكتفياً بالسعادة التي يشعر بها لأنها معه...

كانا يتزلجان طوال النهار، أو يجولان في المدينة يداً بيد، أو يتفرجان على واجهات المتاجر الراقية. وكان دومينيك قد أصر على دخول إحداها حيث اشترى لها فستاناً رائعاً وباهظ الثمن... ووجدت أوليڤيا نفسها أسعد مما كانت عليه طوال حياتها.

سعادتهما العارمة، واستغراقهما في بعضهما البعض، لم يغفل عنهما أفراد المجموعة في الشاليه طبعاً. وكانت ترايسي ترمقهما بالنظرات العابسة والملاحظات الحاقدة، وكان واضحاً أنها عاقدة العزم على إغواء دومينيك، غير أن سارا لم تخل يوماً أن تلك المرأة الطويلة الشقراء البالغة الثامنة والعشرين، قادرة على جذب دومينيك فيتز شارلز الأسمر الرائع.

اعترفت لها سارا ذات يوم بابتسامة عريضة خجلى:

- آسفة... لا بد أنك اعتبرتني غبية عندما أدليت بتلك الملاحظات عن دومينيك وترايسي، فلم أكن أظن قط، بشكل ما....

ضحكت أوليڤيا:

- لم تظني أن امرأة قدمها في القبر، قد تكون فوق التلة كلياً؟

فأسرعت سارا بالاحتجاج:

- آه، لا. لا أعني ذلك، أنا مسرورة جداً لأن أنف ترايسي أصبح في الرغام. إنها عابسة مقطبة طوال النهار!

وأخذت الفتاة تضحك بصوت خافت. لكن أوليڤيا كانت أسعد من أن يقلقها أمر ترايسي... سواء كانت عابسة أم غير ذلك. غير أنها كانت تعلم أنها حمقاء، لأن هذه السعادة لن تدوم طويلاً، فعليها وعلى دومينيك العودة قريباً إلى العالم الحقيقي، حيث سينخر العمل اليومي تدريجياً سعادتهما وشعورهما هذا بالنشاط والإنتعاش. لن تندم أبداً على هذه العطلة التي قضتها مع دومينيك ولكن للأشياء الجميلة نهاية.

كانت تفضل أن تمضي آخر سهرة في كورشيڤيل مع دومينيك وحدهما،

غير أنها كانت راضية تماماً بخطة دومينيك في دعوة المجموعة إلى عشاء وداعي في «جاكزبار» وهو أحد أفضل وأرقى المطاعم في المدينة، ليكملوا بعدها السهرة في نادٍ ليلي.

رغم سعادتها وبهجتها، لم تفقد أوليڤيا قدرتها على اتخاذ قراراتها بنفسها. ووقع بينها وبين دومينيك شجار بسيط عندما اكتشفت في بداية المساء، أنه مزق تذكرة القطار واستعمل هاتفه الخليوي لكي يرتب أمر سفرهما في المركب عبر القناة.

ـ سيكون المركب بارداً كالثلج في هذا الوقت من العام! ولكن لا بأس، نعم، أريد حقاً أن أعود معك.

وقد وافقت أخيراً مع أنها غير راضية عن تمزيقه تذكرة قطارها دون أن يستأذنها.

ـ ولكن لماذا الذهاب بالمركب؟ أظنك جئت إلى هنا عن طريق نفق القنال؟

وعندما قال إن من المحتمل أن يكون الطقس معقولاً، وإن النادي الخاص على ظهر المركب مريح تماماً، وإن بإمكانهما أن يستمتعا فيه بغداء هادىء في طريقهما إلى الوطن، هزت كتفيها إذ أدركت أن دومينيك حين يصمم على شيء فلا فائدة من الجدال معه.

كانت آخر وجبة للمجموعة ممتعة للغاية وكان الجميع راضياً حقاً. حتى ترايسي نسيت حقدها.. ورغم كره أوليڤيا لها، لم تستطع سوى الاعتراف بمدى ما بدت عليه حمراء الشعر تلك من جمال وإغراء بثوبها الذهبي اللون الذي كان ملتصقاً بجسدها مبرزاً مفاتنه الرائعة.

أما بالنسبة إلى فتحة العنق... فكادت أوليڤيا تقهقه ضاحكة عندما توقف الرجال الثلاثة عن السير وقد كادت أعينهم تخرج من محاجرها.

قال دومينيك ضاحكاً:

ـ مهما كان ما تفعليته، يا ترايسي، إياك أن تلتفتي بسرعة في هذا الثوب، وإلا ألقي القبض علينا جميعاً.

وللمرة الأولى تصرفت ترايسي بشكل معقول لأنها ضحكت فقط رداً على ملاحظته قبل أن تتأبط ذراع جوليان الذي كان ينظر متأملاً.

هل يمكن أن تكون علاقة هذين الإثنين زائفة؟ أخذت أوليڤيا تفكر في ذلك وهي تتمنى، لأجل مصلحة جوليان، أن يكون الأمر كذلك. لم تستطع سارا أن تتخذ مثل هذا الموقف السهل بالنسبة إلى الصعوبة التي وجدها زوجها في تحويل عينيه عما تعرضه ترايسي من مفاتنها.

قالت لأوليڤيا:

ـ ثوب ترايسي ذاك يثير الإشمئزاز تماماً.

وتوترت شفتاها عندما قالت ذلك في غرفة معاطف السيدات في نهاية العشاء قبل الذهاب إلى النادي الليلي. فقالت أوليڤيا ضاحكة:

ـ آه! هيا يا سارا... لنعترف أن لدى ترايسي جسداً خلاّباً حقاً.

فتمتمت سارا عابسة:

ـ نعم، أعرف هذا. وهذا ما أشكو منه!.

ضحكت أوليڤيا:

ـ استريحي، فأنا أعرف ترايسي، ولهذا أنا أؤكد لك أنها تخطط لترك جوليان في النادي الليلي كي تبحث لنفسها عن رجل أجمل وأغنى! ومن مظهرها هذه الليلة، أتصور أنها ستنجح في ذلك تماماً، أليس كذلك؟

قالت أوليڤيا ساخرة:

ـ ربما أنت على صواب. لا يهمني في الحقيقة ما تفعله، ما دامت شبكتها بعيدة عن طريق زوجي العزيز.

بعد وصولهم إلى النادي الليلي، وتوجههم إلى المائدة التي حجزها دومينيك لأجلهم، صحّ ما توقعته أوليڤيا. لأن ترايسي سرعان ما اجتذبت الانتباه والإعجاب من عدة رجال كانوا حول مائدة قريبة.

نظرت أوليڤيا حولها فوجدت أن النادي حافل بوجوه معروفة لم تستطع تذكر أسماءها، رغم أنها استطاعت أن تميز ممثلاً مشهوراً مع زوجته.

وكان من المذهل أن لسان جوليان انطلق من عقاله. فهذا الذي أمضى

معظم الإجازة لا يكاد ينطق بكلمتين معاً، أخذ يضحك ويخبرهم بالنكتة تلو الأخرى، ما جعل المائدة بأجمعها تغرق في الضحك باستثناء ترايسي التي كانت الآن ترقص محتضنة رجلاً فرنسياً بالغ الوسامة، لكنها لم تكن مسرورة بتسليط الأضواء على جوليان.

قالت أوليڤيا بصوت منخفض لدومينيك:

- ربما قلّلنا من شأن جوليان.

استمرت السهرة، وكان دومينيك وأوليڤيا عائدين لتوهما من حلبة الرقص، عندما لاحظت أوليڤيا أن ترايسي وحيدة لأن زوجة ذلك الفرنسي الوسيم، الرشيقة الجذابة، نادت زوجها، بينما راحت ترايسي تحملق فيها عبر المائدة. كان واضحاً أنها مستاءة لأنها هي ودومينيك سعيدين مستغرقين ببعضهما البعض.

ردّت أوليڤيا ما قالته ترايسي فيما بعد إلى حقدها العميق بسبب اخفاقها في اغراء دومينيك فقد قالت ترايسي لدومينيك:

- يا عزيزي دومينيك، من الواضح أنك أمضيت عطلة ممتعة حقاً! لكن الأمر لن يكون ساراً لأوليڤيا، أليس كذلك؟ خصوصاً عندما تصل إلى بيتها وتكتشف أنك ستلقي بها جانباً... كما فعلت بسائر صديقاتك الرائعات الأخريات.

وأضافت وهي تلتفت إلى أوليڤيا بابتسامة زائفة.

- آسفة يا حلوتي، وأرجو ألا تكوني قد اقترفت الغلطة الكبرى في الظن بأنه سيطلب منك الزواج به؟

ربما لم تكن ترايسي تعرف بالضبط ما كانت تهدف إليه من وراء ملاحظتها الحاقدة هذه. ولكن في غمرة الصمت المطبق الذي تلا كلماتها، هب دومينيك واقفاً على الفور.

- يسرني أن أخبركم بأن ترايسي مخطئة كلياً.

أعلن هذا للجميع قبل أن يلتفت ليبتسم للفتاة المجفلة التي تجلس بجانبه، ثم ينحني بسرعة يلتقط شيئاً عن المائدة ثم يمسك بيد أوليڤيا

اليسرى بسرعة.

- هذا ليس الخاتم الماسي المعتاد، طبعاً.

ووضع بابتسامة عريضة، الحلقة التي تكون عادة ملتصقة بغطاء زجاجة الشراب في اصبع أوليڤيا الثالث.

- على كل حال، أنا أنوي الزواج بأوليڤيا.. هذه حفلة خطوبتنا.

تلا ذلك لحظة صمت صاعقة أخرى، وأخذ كل من حول المائدة يحدّق ذاهلاً إلى دومينيك الذي كان يجذب الفتاة الذاهلة المرتجفة لتقف، ثم يطوّقها بذراعيه وينحني ليعانقها بتملك ورقة ودفء.

عند ذلك، أخذ الجميع يضحكون ويصفقون ويتمنون لهما السعادة. ولم تلفت الضجة على مائدتهم فقط ابتسامات وتهاني الجالسين على المائدة القريبة بل أيضاً انتباه مصوري الصحف الذين كانوا يصوّرون ذاك الممثل وزوجته.

تملك أوليڤيا الذهول والصمت بسبب السرعة التي حدثت فيها هذه الأمور، لكنها سرعان ما أدركت أن عليها ألا تكون من الحماقة بحيث تحمل عرض الزواج هذا على محمل الجد. مع ذلك ضحكت في وجه دومينيك الوسيم وهي تطرق بأجفانها من وهج «كاميرا» المصوّر، وتقول مازحة:

- لم يعرض عليّ شخص قط الزواج من قبل، مقدماً إليّ فتّاحة علبة مياه معدنية كخاتم خطوبة.

فأجاب بابتسامة عريضة:

- سنذهب لشراء خاتم الخطبة من شارع «بوند ستريت» في لندن حالما نصل إلى الوطن.

ضحكت وهزت رأسها قائلة بابتسامة عريضة:

- يجب أن أعيش طويلاً جداً.

فقال وهو يأخذها بين ذراعيه مرة أخرى:

- يا إلهي، هذا ما أتمناه!

***

٨ ـ الخطيبة الرافضة

ـ لا تكن سخيفاً! نحن نعلم أن الأمر ليس سوى مزحة. طبعاً لسنا مخطوبين.

قالت أوليڤيا هذا بحزم لدومينيك وهما يغادران الشاليه في الصباح التالي.

واستمرت في ترديد هذه الكلمات، وهما عائدان بالسيارة! وعندما اقتربا من «ليون»، فقد دومينيك أعصابه.

ـ أقفلي فمك، يا حبيبتي، بحق الله.

وكانت نتيجة كلماته، صمتاً عابساً من (خطيبته).

ـ ما أنت بحاجة إليه، يا حبيبتي أوليڤيا، هو حمام طويل وشراب ساخن.

ـ آه، لا. لا أرغب في احتساء أي شيء.

وضحك دومينيك وهو يقود الرانج روڤر نحو فندق أنيق قائم وسط مروج خضراء وأشجار فارعة.

ـ ومع ذلك، أؤكد لك أنك ستشعرين بتحسن كبير بعد كوب من الشاي.

أخذت أوليڤيا تحدث نفسها فيما بعد أنه حتماً أفخم فندق نزلت فيه.

وبعدما دخلت غرفتها تبعت أوامر دومينيك، فاستلقت في السرير ناشدة الراحة.

من اللحظة التي دخلا فيها الردهة المهيبة المبنية من الرخام، بجدرانها المزينة باللوحات المرسومة على القماش قبل أن يتوجها إلى جناحين فخمين يشرفان على المرج الأخضر، ابتدأت الرهبة تتملك نفس أوليڤيا. لم تستطع أن تتذكر أنها نزلت مرة في جناح فندق ذي حمامين.

قاطع أفكارها طرق على باب جناحها، أعقبه دخول دومينيك الذي كان يحمل في يده فنجاناً يتصاعد منه البخار.

ـ والآن هوذا دواؤك.

قال هذا وهو ينفجر ضاحكاً حين غطت نفسها بالشرشف الموجود على السرير.

قال بابتسامة عريضة:

ـ ألا تظنين أنه حان الوقت لأرى جمالك وروعتك، نحن مخطوبان إن كنت تذكرين، يا حبيبتي.

ـ نعم، حسناً، ومع ذلك لا أريد أن أعرض نفسي عليك في هذا الجناح المترف غير العادي الذي يبدو غريباً نوعاً ما. أتمنى من الله أن تستطيع دفع نفقاته ونفقات جناحك.

ـ حسناً، إذا لم أستطع، يمكننا دوماً أن نغسل الصحون بعد العشاء.

قال ذلك ثم جرّ مقعداً وجلس عليه.

قالت باحتجاج وهي تحملق فيه:

ـ لا تحفني.

عندما بدأت ترتشف الشاي، بدا لها واضحاً أن دومينيك كان محقاً.

قالت له فجأة:

ـ بالمناسبة، هل كنت تمزح عندما قلت إن ما لديك من مال لا يكفي لدفع الحساب، لأن حسابي المصرفي قد لا يكفي لتسديد أجرة هذا الفندق.

قال ضاحكاً:

ـ يا حبيبتي، كنت أمزح فقط بقولي إنني لن أستطيع دفع الحساب.

ونظر إليها لحظة وهو يبتسم متكاسلاً:

www.elromancia.com

- إن ما يشعرني بالانتعاش، نوعاً ما، هو أنك واحدة من النساء القليلات اللاتي لا يدركن أنني رجل مفرط الثراء. ومهما قيل في هذا، فهو ليس ذا أهمية بالغة بالنسبة للعلاقات الإنسانية.

هزت أوليڤيا كتفيها.

- صدقني أنني ما أوليت يوماً اهتماماً لحالتك المادية... أعني كان لدينا أمور أخرى.

فقال ضاحكاً:

- أمور أخرى نفكر فيها؟ هذا صحيح تماماً. وعلى كل حال، كل ما أريده منك هو أن تعلمي أنني قادر تماماً على إعالة زوجة وأولاد، مهما بلغ عددهم.

- آه، يا دومينيك! تعلم جيداً أن (خطوبتنا) المزعومة ما هي إلا مثل تلك الأمور التي تحدث أحياناً في نهاية حفلة صاخبة. نعم، كانت تلك مزحة جيدة، ولكن علينا الآن أن نعود إلى الواقع، فأنت رجل مشغول كثيراً وأنا امرأة أدير عملاً. ورغم أن كرامتي لا تمنعني من الاعتراف بأن الأسبوعين الأخيرين كانا رائعين، إلا أنني لست حمقاء.

وبان الحزن في صوتها.

- كانت أياماً غير عادية حقاً وسأتذكر دوماً إجازتنا هذه في «كورشيڤيل» بصفتها فترة حافلة بالبهجة والسعادة ولكن يجب أن ترى أنها انتهت الآن.

- أنا لا أرى شيئاً من هذا النوع، وبرأيي نحن مخطوبان وسنتزوج، وهذا هو الأمر.

قالت عابسة:

- آه! أنت لا تفكر بشكل مستقيم. وماذا عن أمك؟

- ماذا عنها؟

ضحكت بأسى:

- من غير المحتمل أن تستقبلني بذراعين مفتوحتين. أليس كذلك؟ فهي

من أكثر النساء اللاتي عرفتهن ترويعاً وتخويفاً.

ولكنه أعلن بغطرسة أنه السيد في بيته، وأن بإمكانه أن يفعل ما يريد بالضبط. ثم رفض رفضاً قاطعاً الاستمرار في الحديث عن هذا الأمر وادعى بأنه يكاد يموت جوعاً، ثم أخذها إلى غرفة الطعام في الطابق الأسفل، مانعاً الاستمرار في الحديث عن المستقبل أثناء وجبة الطعام الرائعة التي تناولاها. وعندما أعادها إلى جناحها لم يمنحها فرصة لمزيد من الاحتجاج وهو يعانقها بحرارة... وكأنه بغمزة من عينه، يمكنه أن يحيل هذا المرأة المحتجة إلى امرأة وديعة.

- أنت لست سوى امرأة ضعيفة واهنة!.

أخذت أوليڤيا تحدث نفسها بذلك وهي ترتدي بنطلوناً أزرق مريحاً، وكنزة رياضية تبنية اللون فوق معطف خفيف كحلي اللون، مستعدة بذلك لبقية رحلتهما إلى لندن. وفي الواقع، لم يكن هناك فائدة من الاستمرار في الإشارة إلى استحالة زواجهما، لأنهما عندما يعودان إلى حياتهما الطبيعية في لندن، سيرى دومينيك بنفسه أن زواجهما لن ينجح.

لقد استغرقها الاعتراف بأنها لم تتوقف قط عن حب دومينيك، وقتاً طويلاً. لكن ذلك، لسوء الحظ غير كافٍ. لأنها. ليست بالغبية، ولا أحد يمكن أن ينكر أن مكانة دومينيك الارستقراطية ولقبه وأملاكه الواسعة وقصره القديم المفتوح يومياً... كل هذا يحمل في ثناياها قدراً بالغاً من المسؤولية.

هو شاب بعيد عن العبث، ولديه واجبات قاضي صلح ورئاسة مجالس جمعيات خيرية، هذا عدا عن إدارة مزرعة شاسعة يتطلب الاعتناء بها وقتاً طويلاً ما يعني أن على من سيتزوجها أن تسانده وتعاونه في كل واجباته.

وجدت أوليڤيا أن من المستحيل أن تتصور نفسها في دور زوجة دومينيك. حتى في عصر المساواة هذا، حيث معظم زوجات الرجال البارزين لهن أعمال خاصة بهن، كانت واثقة من أن دومينيك سيتوقع

www.elromancia.com

منها أن تتخلى عن أعمالها، وتبيع بيتها في لندن وتستقر في قصره بصفتها «الكونتيسة تنتردن».

كانت هذه توقعات تثبّط الهمة، لا يتعهد بها شخص بسهولة. وفي الواقع، بدا لها من المستحيل أن تتصور نفسها تفتتح معرض زهور مثلاً، فكيف بأن تدير قصراً فخماً ضخماً. ثم هناك مشكلة مواجهة والدته.

ولم يكن دومينيك، طبعاً، ليوافق على حصول أي مشكلة بين المرأتين. غير أن أوليڤيا كانت تتوقع مشكلات جمة مع تلك المرأة الفظة المتعجرفة التي لا يمكن أن ترغب في التخلي عن مقاليد الأمور التي تسلمتها زمناً طويلاً. واحتمال أن تعيش أوليڤيا في منزل لا سيطرة لها عليه، لن يقودها إلا إلى التعاسة.

عندما انتهى دومينيك من حزم أمتعته ونزلا إلى الطابق الأسفل لتناول الفطور، لم يكن موجوداً سوى أعضاء مجموعة الشاليه وبعض الغرباء غير المعروفين الذين شاهدوا عرض الزواج المثير، إن لم يكن الجنوني ذاك. وحتى لو ثرثر مارك وسارا والآخرون عما حدث، فمن غير المحتمل أن يصدق أحد مثل تلك القصة الجنونية. وحتى دومينيك نفسه قد يندم على ذلك الفعل الأحمق، ولا بد أن يشكرها لاحقاً لعدم حملها عرضه على محمل الجد.

هذه الأفكار دعمت أوليڤيا حتى وصولهما إلى «كاليه». ولكن عند صعودهما إلى المركب ودخولهما النادي الخاص، تملكتها الصدمة.

وبينما كان دومينيك يضحك، كانت هي تتأوه مذهولة إذ أدركت أن العالم بأجمعه أصبح يعلم بعرضه غير التقليدي ذاك للزواج!

ـ لا أصدق هذا.

وحدّقت بعينين جامدتين إلى الصفحة الكاملة في مجلة شعبية تحتوي على عدد من الصور المختلفة لدومينيك وهو يضع (الخاتم) في اصبعها.

ـ هذه صورة جيدة لك.

قال ذلك مشيراً من فوق كتفها إلى صورة لها وهي تميل برأسها إلى الخلف وتنظر ضاحكة إلى وجهه الوسيم.

وقال بابتسامة عريضة:

ـ أنا لا أحب العناوين الوقحة، ولكن ما تبقى من المقال لا بأس به.

ـ حلقة الإيرل تجذب عصفورته... في الواقع، شعرتُ قليلاً بالغرور لقولهم ذاك (إيرل تنتردن الرقيق المهذب).

وضحك:

ـ هذا أفضل بكثير من ذلك الوصف الوقور الذي في صحيفتي.

وفتح صحيفته (الصنداي تايمز) على الصفحة المطلوبة ووضعها على المائدة أمامها:

ـ آه، لا!

تأوهت وهي تغطي وجهها بيديها، ولكن ليس قبل أن تلقي نظرة قصيرة مذعورة على العنوان (منظمة الأعراس تنظم عرسها).

ـ ولكن كيف وصلت هذه الصور إلى الصحف، وبهذه السرعة؟

تمتمت بذلك من بين دموعها وقد صُعقت تماماً، شاعرة بالغثيان لرؤيتها صورها في الصحف. فأجاب دومينيك وهو يهز كتفيه:

ـ المصورون إذا كنت تذكرين بعضهم، بالإضافة إلى مراسلين صحفيين كانوا حول النادي الليلي. كانوا، طبعاً، مهتمين بالتقاط بعض الصور الفجائية لذلك الممثل الفرنسي وزوجته، ولتلك الوريثة اليونانية التي تنتقل دوماً من زوج إلى آخر.

هز كتفيه مرة أخرى:

ـ يبدو أننا كنا سيئي الحظ لأنهم رأونا. ومن ناحية أخرى، قد لا تكون فكرة سيئة. فذلك قد وفّر علينا ازعاج أنفسنا بإخبار أصدقائنا بأننا سنتزوج. أليس كذلك؟

ضحك عندما رأى أوليڤيا تتأوه من أعماق قلبها، وتهبط فجأة فوق المائدة، وتدفن رأسها بين ذراعيها.

كانت مصادفة تامة أن يكون المصورون في النادي الليلي، طبعاً، ولكنهم، كما حدث دومينيك نفسه وهو يناضل كيلا ينفجر بالضحك، قد

قدموا إليه خدمة ملحوظة. لأن حبيبته أوليڤيا، التي كانت تبذل جهدها لئلا تقع في الفخ، وجدت من الصعب جداً أن تهرب من هذه الشبكة التي التفت حولها. لا بأس، قد يكون من الأفضل مداومة الضغط عليها.

ـ أنا صاعد إلى سطح المركب لاستنشاق الهواء النقي.

حين لم تجب إلا بآهة طويلة خافتة، التوى فمه هزلاً واحتضنها مواسياً، وربت على كتفها، ثم خرج من القاعة إلى الردهة حيث أخرج هاتفه الخليوي، ثم ضغط زر الاستعلامات.

ـ نعم، أريد رقم صحيفة «التايمز» و «الديلي تلغراف» شكراً.

ثم أغلق باب الردهة خلفه بحزم.

* * *

هتفت «مورين» بلهفة واضحة وهي تهرع لتحيي رئيستها، داخل المكتب.

ـ أواه، يا أوليڤيا. ما أشد سروري! قبل كل شيء تلك الصور الرائعة في الصحيفة أمس. واليوم الإعلان الرسمي! هل طلب اللورد تنتردن حقاً الزواج بك عندما وضع في اصبعك تلك الحلقة التي قطعها من علبة عصير في اصبعك؟ يا لها من شاعرية!

ـ أرجوك يا مورين... لا تبدئي.

وتأوهت أوليڤيا شاعرة بأنها توشك على الموت بعد ليلة أرقة أمضتها وهي تتقلب في فراشها مفكرة في ما عليها أن تفعل.

ـ كانت فقط مزحة سخيفة.. هذا كل شيء.

وحدقت مورين إليها بارتباك بالغ:

ـ ولكن... ولكن.. ماذا عن الإعلان في الصحف اليوم؟

ـ أي اعلان؟ وأي صحف؟

قالت أوليڤيا هذا وهي تأخذ رشفة من فنجان قهوتها السوداء.

قالت مورين:

ـ حسناً، لم أر «الدايلي تلغراف»، لكن اعلان زواجك مذكور في

صحيفة «التايمز».

وفتحت الصحيفة على المقال ووضعتها أمامها.

ـ هذه أنت. لا يمكن أن تكون الصورة أكثر وضوحاً. أليس كذلك؟

وكانت مورين على صواب تماماً. ذلك أنها قرأت ذلك الخط العريض الواضح: (زيجات قريبة).

(«إيرل تنتردن»).

(«والنبيلة» أوليڤيا جونسون).

(أعلنت الخطبة بين الايرل تنتردن صاحب قصر شارلبري، «كنت» وأوليڤيا روز جونسون، الابنة الوحيدة للورد «بيبري» واللايدي الراحلة «اللايدي بيبري»).

ـ لكنني لا أفهم.. أنا لم أرسل اعلاناً للصحف! فمن فعل أمراً كهذا؟

قالت أوليڤيا هذا نائحة. ثم، عندما تجاوبت صرختها في أنحاء المكتب، عرفت بالضبط من هو الفاعل. فقالت من خلال أسنانها المطبقة وهي تقفز عن كرسيها:

ـ سأقتله.

وأخذت تذرع أرض المكتب أمام مورين المذهولة التي كانت تحدق في رئيستها التي راحت تشتم كالمجنونة.

ـ ذلك الجرذ الكريه القذر المنافق.

ثم اختطفت تحفة صغيرة عن خزانة الملفات بجانبها، قذفتها نحو الجدار بعنف:

ـ أنا أعلم ما الذي يقصده. كلها مؤامرة متعمّدة، فقط ليرغمني على توقيع وثيقة الزواج. حسناً، لن أدعه يخيفني بهذا الشكل.

ـ أوليڤيا... أوليڤيا، اهدئي بالله عليك وقولي ما جرى.

حين نجح صوت مورين أخيراً في تشتيت الغضب من عقل أوليڤيا، حاولت هذه السيطرة على ثورتها المدمّرة، فقالت قبل أن تتنهد بكآبة عميقة ثم تسير نحو مكتبها تجلس خلفه.

ـ نعم، أنا آسفة. المسألة فقط أنني لا أستطيع مواجهة أي شيء هذا الصباح.

واتكأت إلى الخلف مغمضة العينين.

ترددت مورين وهي تحدق إلى الفتاة المرهقة قبل أن تهز رأسها بخفة وتترك الغرفة، لتعود بعد دقائق بكأس ماء وبعض الأسبرين.

قالت بهدوء:

ـ خذي. هذا سيفيدك.

وجذبت كرسياً جلست عليه قبالة أوليڤيا.

ـ والآن لماذا لا تخبرينني بكل شيء؟

فتنهدت أوليڤيا:

ـ الأمر معقد جداً. فأنا لا أدري من أين أبدأ حتى.

ثم ابتسمت للمرأة شاكرة، بعدما ابتلعت الاسبرين. وقالت مورين باسمة:

ـ ماذا لو بدأت بالقصة من أولها إلى نهايتها؟

بعد أن سردت أوليڤيا كل ما حدث في الأسبوعين الماضيين، أجفلت لردة فعل مساعدتها التي قالت ضاحكة:

ـ حسناً، هناك على الأقل حقيقة واضحة الشمس. ربما أنت تعانين من الشكوك وعدم الثقة، لكن سيادته يعرف حتماً ما يفعله.

هزت أوليڤيا رأسها:

ـ لا، إنه لا يعرف. سبق أن قلت لك إنها كانت مزحة فقط... عملاً صبيانياً في الحقيقة. ذلك النوع من الأعمال التي يقوم بها المراهقون في نهاية السهرة. أعني إنها ليست الطريقة العادية لعرض الزواج، أليس كذلك؟. في سني هذا أتوقع شيئاً أكثر وقاراً مما حدث.

تأملتها مورين عدة لحظات، ثم قالت:

ـ هل تحبينه؟

قالت أوليڤيا دون أن تنظر في عيني المرأة:

ـ ليس لهذا علاقة بالأمر، أنا لا أحب التسرّع...

ـ أودّ أن أقول إن لذلك كل العلاقة. إذا كنت لا تحبين الرجل، فالجواب إذن سهل تماماً. كل ما علي القيام به لو كنت مكانك، هو أن أرسل بلاغاً لصحيفتي «التايمز» و «التلغراف» أعلن بأسف بأن زواجك من «الإيرل الكونت ترنتردن» لن يحدث. لقد سبق أن اضطررنا للقيام بهذا العمل بالنسبة للخطيبين اللذين فسخا خطبتهما، أليس كذلك؟

ـ نعم، أظن أن علينا ذلك.

قالت أوليڤيا هذا وهي تتنهد، بينما أخذت مورين تراقب تعاقب الصراع على وجه رئيستها.

ثم قالت أخيراً:

ـ حسناً، هل تريدين أن أرسل بلاغاً إلى الصحيفتين ألغي بهما خطبتك؟.

تنهدت أوليڤيا مرة أخرى وأخذت تتمتم بعجز:

ـ لا... نعم... لا أدري.

ـ إذن فأنت تحبينه.

تنهدت أوليڤيا ساخطة:

ـ نعم، وتباً لذلك. أنا طبعاً أحب ذلك الرجل اللعين لكنني لا أحب التسرّع بذلك الشكل. وأنا أكره جداً أن تنشر لي الصحف صوراً حمقاء وما زلت لا أستطيع أن أفهم لماذا، بعد أسبوعين رائعين سعيدين معاً، يفعل مثل هذا الشيء السخيف بتلك الحلقة... لست أفهم!

قالت المرأة متأملة:

ـ آه، لا أدري. ربما خاف بعد أن تعودي إلى الوطن أن تنشغلي بعملك فتنسين أمره.

ـ ولكن هذه هي المسألة. أنا لست حمقاء بحيث أبقى على وئام معه، فعلينا أن نعود إلى العالم الحقيقي ولهذا بالضبط لم آخذ عرضه على محمل الجد.

www.elromancia.com

تأملتها مورين لحظة بصمت:

ـ لماذا لم يخطر ببالك أن بإمكان «الإيرل» هو أيضاً أن ينتهي إلى هذا الاستنتاج؟ ألا يعني هذا أن الرجل ليس أحمق، وأنه قادر كلياً على ادراك حقيقة واقعكما؟ ربما قرر فقط أن يضرب الحديد وهو حام لكي يتأكد من مشاعرك ما دام لديه الوقت لذلك، وهي إشارة رومانسية. ليتني وجدت يوماً من يعرض علي زواجاً بهذا الشكل!

ـ نعم، نعم أرى أن لديك وجهة نظر.

فجأة بدأ الهاتف بالرنين. فقالت لها:

ـ هل لك أن تجيبي؟ لا يمكنني أن أتحدث مع أحد حالياً.

كان هذا لسوء الحظ بداية سلسلة لا تنتهي من المكالمات الهاتفية من أصدقاء أوليفيا وزبائنها القدماء. وكلهم إما رأوا الصور في صحف الأحد، وإما قرأوا عن الخطبة في صحف هذا الصباح.

بدوا جميعاً، دون استثناء، غاية في السرور وقد عبروا بشيء من التأثر عن تهنئتهم وتمنياتهم لها بأن تلقى السعادة والحب الحقيقي مع رجل أحلامها، بدلاً من تهنئتها على أنها تمكنت من الفوز بأحد أشهر العزّاب في بريطانيا.

وعندما جاء هيغو، أخذ يغيظها دون رحمة، فقد وجد هاتفها مشغولاً على الدوام، لذا اضطر للمجيء إليها وقت الغداء.

ـ يا لك من فتاة ماهرة! مع أنني لا أستطيع أن أتصورك كونتيسة، يا أوليفيا. وأخاف أن تستحيلي مع مرور الزمن إلى عجوز مخيفة مثل والدة دومينيك.

ـ إياك أن تتفوه بالمزيد! كنت أخبر مورين أن الأمر في الحقيقة مجرد مزحة خرجت عن السيطرة.

ثم أضافت وهي تهز كتفيها بضعف.

ـ وأنا أتوقع أن يتصل بي دومينيك في أي لحظة.. معترفاً بأنه اقترف غلطة كبرى ثم يتوسل لي بمذلة أن أغفر له ذلك. والأفضل له أن يعتذر

بشكل صحيح... لأنني مستعدة لأن ألوي عنقه!.

ـ لا تكوني حمقاء، يا أوليفيا، فقد رأيت أنه مجنون بك. أما لماذا تظنينه يمزح، فهذا ما لا أعرفه...

ـ انتظر لحظة!

هتفت بذلك وقد تصلب جسمها فجأة وهي تلتفت إليه ناظرة بإمعان:

ـ أخبرني بالضبط متى (رأيت) أن دومينيك مجنون بي كما تزعم؟ لم أعلم أنك رأيته مؤخراً. هل تحب أن تخبرني بما حصل؟

وكان صوتها ينذر بالشر. فهز أخوها كتفيه.

ـ صدقيني يا أوليفيا أنني لا أتذكر شيئاً غير هام كهذا، و...

ـ هيغو!! أنا أعرفك طوال حياتي.. فلا تحاول أن تراوغ. متى رأيت دومينيك بالضبط؟.

ـ آه، حسناً، إذا شئت أن تعلمي، لقد بحث عني منذ شهر تقريباً.

ـ وبعد ذلك؟

فقال بسرعة عندما خرجت مورين من الغرفة رغبة في الهدوء في مكتبها:

ـ والآن، اهدئي يا أوليفيا. لم يكن لذلك أي علاقة بك. والواقع أنه لم يكد يذكر اسمك إلا بشكل مختصر في نهاية حديثنا.

حدّقت فيه لحظة برزانة، ثم سألته بارتياب:

ـ لماذا لم تخبرني إذن بأنك قابلته؟ ولماذا اتصل هو بك بالضبط؟

تنهد أخوها.

ـ ربما كنت سأخبرك باجتماعي بدومينيك... ولكن عندما طلب مني ألاّ أفعل، لأن ذلك قد يبدو غريباً نوعاً ما، وافقتُ على ألاّ أقول شيئاً.

حملقت أوليفيا فيه، ثم تنفست بعمق:

ـ آه! لا بأس، سنصل إلى بداية هذا كله... أما الآن! فاجلس يا هيغو وأخبرني بالضبط ما كنتما تهدفان إليه.

وبعد ذلك بعشر دقائق، كانت تتكىء إلى ظهر كرسيها خلف مكتبها.

- يبدو أن دومينيك كان مشغولاً جداً بتوريط أسرتنا في مشروعه الأثيم هذا. أليس كذلك؟

قالت لأخيها هذا بمرارة بعد أن استمعت بدهشة إليه وهو يخبرها كيف اتصل به مكتب محاماة وكيل زبون مجهول يبني نسخة عصرية تماماً عن قرية إنكليزية على قطعة أرض يملكها. ولم يقابل هيغو دومينيك إلا بعد أن تسلّم العقد وعرف أنه هو ذلك الزبون... فكان لقاؤهما لوضع اللمسات الأخيرة على التصميم الذي قدمه هيغو. وكان هذا يقول لها الآن بحزم:

- لقد ربحت ذلك العقد بجدارة. قد لا تصدقيني، لكنني رأيت بعض التصاميم الأخرى التي قُدمت إليه، فعرفت أن تصميمي كان الأفضل. ولقد طلب إلي دومينيك ألا أخبر أحداً، لأنه خاف أن يبدو الأمر وكأنه محاباة شخصية لصديق قديم. ولأننا لم نتقابل منذ زمن طويل، احترمت رغبته تلك.

بدا لها الآن كل شيء معقولاً، على الرغم من أن الشكوك كانت تساورها. غير أنها لسوء الحظ، لم تستطع كشف الخلل حالياً.

قالت بسرعة:

- لحظة واحدة. كيف عرف دومينيك عنوانك؟ ألم تنتقل إلى شقتك الصغيرة منذ أشهر فقط؟

- لا أدري. صدقيني يا أوليڤيا... المرة الوحيدة التي ذُكِر فيها اسمك في الموضوع هو عندما تحدثنا عن الموعد الذي كان علي فيه البدء بالعمل. فقد أخبرته أنني مشغول في هذا الوقت بالذات لأنني اتفقت معك على الذهاب في إجازة، أليس كذلك؟.

- إذن...؟

- قال لي دومينيك ألا أقلق كثيراً، فهو واثق من أنك ستقضين عطلة ممتعة وأن جون غراهام سيتمكن بسهولة من إيجاد شخص آخر يذهب مكاني.

حدقت أوليڤيا إليه لحظة، قبل أن تهتف باشمئزاز.

- آه نعم! لقد وجد حقاً شخصاً آخر يذهب مكانك. وجد نفسه... ذلك الجرذ الغشاش المتستر.

قال متجهماً:

- آه، ما هذا؟ لقد أصبحت كثيرة التشكك والريبة! بحق الله عليك، يا أوليڤيا، إننا نتحدث عن مشروع يكلف ملايين الدولارات... وما من رجل عاقل قد يغامر بتعريض ذلك المشروع للخطر بتوظيف شقيق حبيبته فيه، فقط ليقضي اجازة مع حبيبته. هذا غير معقول.. عليك أن تفهمي ذلك.

فتنهدت أوليڤيا:

- نعم، الحق معك.

اعترفت في قرارة نفسها بأن دومينيك أولاً وأخيراً، هو رجل أعمال. وعادت تقول:

- الأمر أن كل شيء يبدو غريباً. وفي الحقيقة لم تصادفني من قبل مثل هذه (المصادفات)، كما صادفتني في الشهر الماضي. ربما بدأت أخرف، مثل أبي.

ضحك أخوها:

- لا تكوني معتوهة. بالمناسبة، هل أعلمت أبي بأخبارك؟

- آه، رباه. لا.

قالت هذا شاعرة فجأة بالذنب لنسيانها كل شيء عن أبيها بين كل هذه الأمور المزعجة عن خطبتها المزعومة من دومينيك.

- كنت أنوي الاتصال بمديرة منزله الليلة.

وتناولت سماعة الهاتف وطلبت الرقم بسرعة. وبعد ذلك بدقائق، قالت بتأمل وهي تضع السماعة:

- حسناً... لا أدري. كنت أتساءل عما منع (خطيبي) المزعوم من الاتصال بي هذا الصباح، والآن فهمت السبب. سيهمك أن تعلم أن دومينيك ذهب لزيارة أبي هذا الصباح، والآن، كما قالت مديرة المنزل

السيدة دوغلاس، والدنا يحتفل.

ـ يا الله.. ظننت أن أبي قد فقد عقله كلياً.

قالت عابسة:

ـ كيف تقول شيئاً كهذا عن أبيك؟ ولكن يجب أن أعترف بأنه لم يكن صاحياً عقلياً تماماً في المدة الأخيرة. ومع ذلك، ربما بإمكانك أن تخبرني ماذا يقصد دومينيك بزيارته والدنا، فهو لم يقترب من بيتنا قط في السنوات العشر الماضية.

فقال هيغو مازحاً وهو يهز كتفيه:

ـ ربما ذهب ليطلب يدك للزواج.

في الوقت الذي أرسلت فيه مورين إلى بيتها بعد يوم حافل، كان ذهن أوليڤيا غارقاً بأسئلة كثيرة لا جواب لها، أهمها يتعلق بسبب عدم اتصال دومينيك بها اليوم.

كانت فكرة خطوبتها بأكملها كلاماً فارغاً. ولكن كان على ذلك الخنزير أن يحاول الاتصال بها بعدما أحدث خبر الخطوبة كل تلك الضجة والحماسة. كانت أوليڤيا تفكر بذلك وهي ترتب مطبخها الصغير بعد احتفال هيغو بخطوبتها.

يا له من احتفال! حدثت نفسها بذلك عابسة وهي تحاول أن تكشف أيّ من مضايقات دومينيك الكثيرة لها، أثارت سخطها أكثر من غيرها. واستنتجت أخيراً أن شعورها بالعجز والإحباط لأنها لم تعد تملك السيطرة على حياتها هو ما يهمها أكثر من أي شيء آخر.

«سأنتظر فقط حتى أراه».. كانت تتوعده بينها وبين نفسها حين سمعت جرس الباب يُقرع.

قالت متهكمة عابسة وهي ترى دومينيك يقف على العتبة:

ـ حسناً، هوذا خطيبي الحبيب!

وأفسحت له الطريق ليدخل إلى الردهة الصغيرة.

ـ يبدو أنك كنت مشغولاً كثيراً اليوم.

ـ نعم، اسأليني عن ذلك.

ـ نعم، حسناً، هذا هو ما كنت أنويه، في الواقع.

قالت هذا عابسة وسارت أمامه صاعدة السلم إلى غرفة جلوسها الصغيرة.

ـ عليك تقديم بعض الإيضاحات... وقائمة الأشياء التي أريد أن أناقشها معك تزداد طولاً دقيقة بعد أخرى. بدءاً بـ...

قال رافعاً يده.

ـ انتظري. لا أريد أن أكون صعباً، يا أوليڤيا.

قالت وهي تحملق فيه:

ـ هذا غريب!

ـ لم آكل شيئاً منذ الصباح. ولذا إذا وعدتك بأن أجيب عن أسئلتك كلّها، فهل تتفضلين وتغيرين ثيابك بسرعة لكي أصحبك إلى العشاء؟ فأنا أكاد أموت جوعاً، يا حبيبتي.

حدقت إليه لحظة بثبات، قبل أن تتنهد، قائلة بأسى:

ـ أنت لا تطاق أبداً، يا دومينيك. ولكن لا بأس إذا كنت ستصدق معي أخيراً.

قال:

ـ لك مني كلمة شرف.

وأخذها بين ذراعيه بسرعة يعانقها عناقاً خاطفاً.

ـ والآن أسرعي بحق الله، فأنا أكاد أموت جوعاً.

ـ لم أعرف يوماً شخصاً لا يستطيع القيام بأي عمل إلا إذا تناول ثلاث وجبات كاملة في نهاره.

قالت أوليڤيا هذا فيما بعد. وهما جالسان حول المائدة في مطعم «شي موا» وهو أحد أكثر المطاعم الصغيرة شاعرية في لندن. وضحك:

ـ آه، هيا! ألم تدركي أن ذلك هو السبب الوحيد لرغبتي في الزواج بك؟... لأنني بهذا أتأكد من أنني سآكل طعاماً رائعاً إلى آخر حياتي.

ـ السبب الوحيد؟ هل هذا حقاً هو السبب في كل هذا يا دومينيك؟ أما كان أسهل عليك أن توظف عندك طاهياً ماهراً؟

فابتسم لها متكاسلاً:

ـ أنت على صواب تماماً. إن هذا صحيح بكل تأكيد.

قال هذا وهو يمسك بيدها يرفعها إلى شفتيه.

ـ لكنك كنت تعلمين في أعماق قلبك، يا أعز الناس، أنك أنت من أريد. ومع أنك تعبّرين عن مشاعرك بكثير من الصراخ والغضب، ولكنني لا أصدق أبداً أنك شككت قط بنواياي.

ـ حسناً، ربما كلامك صحيح.

اعترفت بذلك ببطء غير قادرة على مواجهة النظرات التي يرمقها بها.

ـ لكنني لست من النوع الذي يصلح لمواجهة ما هو غير متوقع. وعليك أن تعترف بأنك أوقعتني في كثير من الشدة والضيق.

وحاولت سحب يدها من يده.

ـ آه، لا تفعلي هذا.

ظل يقبض على يدها بحزم، ثم رفعها بسرعة إلى شفتيه مرة أخرى، قبل أن يلتفت ليشير إلى نادل كان ماراً بقرب المدخل.

ثم قال لها بحزم عندما عاد النادل إلى الظهور وفي يده صينية فضية عليها علبة صغيرة من الجلد.

ـ سأتحدث معك عن كل ما تريدين وأجيب عن أي سؤال تطرحينه. إنما حان الوقت لكي أقدم إليك بديلاً عن خاتم الألمينوم ذاك. أليس كذلك؟

أخذ العلبة عن الصينية ووضعها على المائدة أمامها. ثم قال وهو يفتح العلبة:

ـ اخترت أربعة خواتم ووضعتها في «خزنة» المطعم. لكن هذا المفضّل لدي لأنه يتلاءم مع عينيك الخضراوين الواسعتين الرائعتي الجمال.

قال هذا وهو يخرج من العلبة خاتماً مرصعاً بالماس والزمرد الأخضر، ثم

يدسّه في اصبعها.

قالت وهي تشهق:

ـ أواه، يا دومينيك.

أخذت تحدّق مخلوية اللب إلى الأحجار الكريمة الرائعة وهي تتألق في ضوء الشموع، وسألها:

ـ هل أعجبك؟

قالت بصوت خافت:

ـ أحببته كثيراً.

سلخت عينها عن الخاتم لتحدق إليه بعينين تلمعان كالنجوم.

ـ وأحبك... ولكن... هل أنت واثق حقاً من أنك تريد أن تتزوجني؟

قال لها برقة بالغة:

ـ من كل قلبي.

وجمع جسمها المرتجف بعناق حار.

***

٩ ـ في القلب غمامة

أخذت أوليڤيا تحدق من النافذة إلى سيل المطر المنهمر من السماء الرمادية الغائمة، ثم تنهدت. بدا وكأن المطر لم يتوقف منذ أربعة أيام... منذ أيقظها ذلك الاتصال من مديرة منزل أسرتها، تبلغها فيه الخبر الصاعق عن موت أبيها المفاجىء.

ـ يا للرجل المسكين! فقد بدا في المدة الأخيرة بالغ الشباب والانتعاش... ولكن، قد يكون هذا أفضل له.. ألا نحب جميعنا أن نرحل بهذا الشكل؟ بهدوء أثناء النوم؟

كانت السيدة دوغلاس، طبعاً، على صواب تام. ذلك أن أوليڤيا التي غادرت لندن فوراً وجدت تعزية بالغة عندما استجمعت ما يكفي من الشجاعة لتدخل لرؤية أبيها، وإذا بها تجد كل أثر للشيخوخة والشقاء قد أمحى من وجهه فبدا هادئاً مرتاحاً بعد حياة تعسة.

وعلى كل حال، نادراً ما يجد الذين بقوا في هذه الحياة فرصة للحزن على أحبائهم الراحلين لأنهم ينشغلون كثيراً بترتيبات الجنازة والدفن، والتعامل مع المحامين، والإجابة على كل رسائل التعزية التي كانت ترد يومياً في البريد.

جاء أخوها هيغو في الأمس إلى بيت الأسرة لكنه لم يبقَ طويلاً:

ـ آسف لعدم قدرتي على المساعدة، لكننا مشغولون تماماً حالياً، ومن المستحيل أن أبتعد وقتاً طويلاً، حتى ولو شئت أنا ذلك.

قال لها ذلك بقلق واضح وهو يمرّر يده في شعره، شارد البال.

قالت بهدوء:

ـ لا بأس، احرص على حضور الجنازة، وأنا أتكفل بكل شيء.

وقال هيغو فيما بعد، وهو يمرّ بيده بتكاسل على البقية القليلة من قطع الأثاث التي لم تعجب البائع.

ـ هذا غريب. غريب أن يخاطبني الناس بلقب اللورد «بيبري». عندما ينادونني بذلك أنظر حولي متوقعاً أن أرى أبي واقفاً خلفي. فبعد أن كنت هيغو جونسون فقط طوال تلك السنوات، إذا بي... حسناً، لا يمكنني الاعتياد...

وضعت يدها برقة على كتفه معزيّة.

ـ ستعتاد مع الوقت.

ثم سألته إن كان لديه أي ترنيمة دينية مفضلة لتعزف في الجنازة بعد أيام.

كرهت تقريباً كل تلك الترتيبات التي كان عليها القيام بها، ولكن ذلك أفادها إذ منعها من التفكير كثيراً في قضية خطبتها. تلك الخطبة التي تجمدت حالياً وأرجئت.

عندما دعاها دومينيك الأسبوع الماضي إلى ذلك العشاء الشاعري في مطعم «شي موا» وقدم إليها خاتم الخطبة الرائع ذاك، توقعت بكل ثقة، أن تتلاشى شكوكها كلها، خصوصاً بعد أن وعدها دومينيك بالإجابة عن كل الأسئلة التي تزعجها.

لقد بدا لها أنه سيتمكن من الوفاء بوعده، لذا قالت له مبتسمة:

ـ تعرف أنني أحبك، ولكن عليك أولاً أن توضح لي بالضبط ما يجري، أليس كذلك؟

ـ من الصعب معرفة من أين أبدأ.

وهز كتفيه فابتسمت:

ـ كما تقول مساعدتي مورين، لِمَ لا تبدأ من البداية وتستمر إلى النهاية.

قال ضاحكاً برقة:

ـ هذا معقول جداً. ولكن، في هذه المرحلة بالذات من علاقتنا لا أودّ أن أعود إلى أول علاقتنا الغرامية منذ سنوات. أنا لا أقول إنها لم تكن هامة، لأنها كانت كذلك في الواقع، لكن أحداثاً كثيرة حدثت أثناء تلك السنوات بحيث تبدو بعيدة جداً. أليس كذلك؟

ـ نعم، الحق معك.

ـ المهم أن نضع في ذهننا أن جزءاً منك، بقي منطوياً في زاوية من عقلي وقلبي رغم ما جرى بالماضي.

وابتسم بدفء قبل أن يردف: «لقد عرفت نساء أخريات كثيرات، ولكن لم تستطع أي واحدة منهن...».

وتردد لحظة.

ـ كيف أعبر عن ذلك؟ لم يحدث قط أن بدت لي واحدة منهن (مناسبة تماماً). ومع أنني كنت، كما يمكنك أن تتصوري، تحت ضغط كبير من أمي وبقية الأقارب لكي أتزوج وأستقر لأنجب وريث الأرض واللقب، غير أنني لم أكن مستعداً قط لقبول ذلك الخيار. وبصراحة، يا عزيزتي، لم أكن مستعداً للتضحية بسعادتي، أو بسعادة المرأة التي سأتزوجها، لهذا السبب...

صمت لحظة وهو يمسك بيدها ويمر بإبهامه على خاتم الخطبة الماسي في اصبعها:

ـ ... وفجأة، لمحتك في عرس مارك وسارا. في الواقع...

وضحك برقة.

ـ لم أكد أرى شيئاً منك في البداية. كان انطباعاً سريعاً فقط، لمحة خاطفة من فتاة رشيقة طويلة سرعان ما اختفت عن النظر.

والتفت إليها عابساً.

ـ كنت حريصة على ألا أراك، أليس كذلك؟

أومأت:

ـ كنت خائفة للغاية. كل ذلك... لا أدري. بدا وكأن الماضي جاء ليصفعني بشكل ما.

لم تكن قادرة على التعبير عن الصدمة المفاجئة والرعب الذي شعرت به للقائها به بعد كل ذلك الزمن الطويل. فقال بصوت يشوبه شيء من الحزن:

ـ لقد تغيّرت حقاً يا أوليڤيا، فلا عجب ألا أميّزك فوراً، أليس كذلك؟ وعندما اكتشفت من تكونين... وبعد ذاك العناق، ليلة عرس مارك وسارا... عرفت، بدون شك، أنك أنت المرأة المناسبة... وتعلمين البقية.

ـ لا. لا أعلم. فقد تصرفت بشكل غريب للغاية، و...

قال ضاحكاً:

ـ هذا كثير. دعيني أخبرك بأنه لم يسبق أن عانيت في حياتي كما عانيت حينذاك من مشقة. فما إن أراك تذوبين بين ذراعي، حتى تتملصي مني هاربة بأسرع ما تستطيعين! وبصراحة، لا أستطيع أن أتصور رجلاً آخر عانى من فترة غزل مرهقة بذلك الشكل.

حملقت فيه ثم قالت منهمة:

ـ غزل؟ وأي غزل ذاك؟ لا تظن أن الشكوك لم تساورني بمسألة توظيفك لأخي.

ـ آه... حسناً... نعم.

أخذ يتمتم بهذا والخجل بادٍ على ملامحه الوسيمة:

ـ يجب أن أعترف بأنني، في البداية، كنت أبحث عن شيء... شيء يقرّبني إليك، يا أوليڤيا، كنت عنيدة لا تلينين.

قالت عابسة:

ـ شكراً.

ضحك:

ـ تعرفين ما أعنيه. لكن عليّ أن أعترف أن هيغو رجل موهوب جداً، وحالما تمكنت من رؤية العمل الذي يمكنه انتاجه، أدركت أنني سأكون أحمق

إن أنا لم أظفر به. . صدقي أن هيغو قد حظي بالعمل بجدارة واستحقاق. نعم لا أنكر أنني أحبك من كل قلبي، ولكن من غير المحتمل أن أضحي بمثل هذا المشروع البالغ التكاليف فقط من أجل ابتسامة واحدة من ابتساماتك الجميلة.

ـ أنا مسرورة لما أسمع.

قالت هذا وقد شعرت فجأة براحة عميقة لأن أخاها كان على صواب تام. وبدا لها أنه يستحق النجاح الذي سيحققه بتصميمه تلك القرية الجديدة.

ـ ولكن عليّ أن أعترف بالحقيقة. . . وهي أن أخاك لم يكن مضطراً لمباشرة العمل بتلك السرعة التي أصرّيت عليها. وأنا مذنب أيضاً لأنني انتهزت الفرصة، وذهبت بدلاً من أخيك إلى الشاليه. وها أنت الآن تعلمين كل شيء.

قال هذا واتكأ إلى مقعده شاعراً بالراحة لتخلصه من كل ما كان عليه أن يوضحه بالنسبة إلى سلوكه في الأسابيع الماضية.

ـ هممم. . .

تمتمت أوليڤيا بذلك قبل أن تتذكر فجأة، سؤالاً آخر:

ـ آه، نعم! لماذا ذهبت هذا الصباح لزيارة أبي؟

ـ لا تكوني سخيفة، يا حبيبتي. كان عليّ أن أطلب يدك للزواج، أليس كذلك؟

ـ آه، هذا صحيح!

قالت هذا وهي تدرك أن تعليق هيغو المازح كان صواباً تماماً.

ـ أليس هذا تقليداً رجعياً نوعاً ما بالنسبة إليك؟

ـ آه! ولكن لا بد أنك أدركت قبل الآن أنني رجل رجعي تماماً.

قال هذا ضاحكاً، غير أن رنين هاتفه الخليوي الحاد، منعه من قول المزيد.

ـ آسف، ظننت أنني سبق أن أقفلت هذا اللعين.

تمتم بذلك بضيق وهو يخرج الهاتف من جيب سترته. وكان على وشك إلغاء المكالمة، عندما ميّز فجأة رقم هاتف من نيويورك. وقال:

ـ مرحباً، يا عزيزتي. عليّ أن أخبرك بأن هذا ليس بالوقت المناسب للاتصال بي. خصوصاً وقد ألبست لتوي فتاة خاتم الخطوبة و. . . آه، رباه «كوني»! كيف حدث ذلك؟

أوليڤيا التي وجدت نفسها تتصلب عندما بدأ محادثته الهاتفية مع فتاة تبدو على صلة وثيقه به، سرعان ما استرخت عندما أدركت أنه يتحدث مع أخته «كوني» في أميركا. وأثبت دومينيك هذا بتقطيب جبينه وزمّ فمه. ثم أنهى الحديث وجلس يحدق في غطاء المائدة مستغرقاً في التفكير.

ـ هل هناك مشكلة؟

سألته هذا بهدوء وهو يشير إلى النادل ليدفع الحساب.

ـ نعم، نعم. يجب أن أستقل أول طائرة إلى نيويورك. فزوج أختي، تعرّض لحادث، وتقول «كوني» إن حالته غير مستقرة وخطرة. ولهذا علي أن أذهب إليها.

ـ نعم، عليك ذلك طبعاً.

ونهضت عن المائدة، ثم سارا معاً إلى خارج المطعم.

ـ أنا أسف كثيراً لهذا يا عزيزتي.

قال هذا لها وهما يقطعان مشياً المسافة القصيرة التي تفصل المطعم عن بيتها.

ـ وسأعود بأسرع وقت ممكن طبعاً.

أخذ المفتاح منها وفتح الباب ثم أخذها بين ذراعيه في عناق شغوف.

ـ تذكري فقط أنني أحبك.

وهذه آخر مرة ترى فيها دومينيك. أخذت أوليڤيا تحدث نفسها بذلك حزينة، وهي تبتعد عن مشهد السحب الرمادية والمروج المشبعة بالماء.

تنهدت تنهيدة عميقة وأرغمت نفسها على السير إلى المكتب حيث كانت الرفوف الخالية برهان صامت على أن المجلدات الثمينة المجلدة التي كانت

ذات يوم تبطن الجدران، قد أُرسلت منذ وقت طويل إلى قاعات المزاد في لندن، وهي محاولة أخرى من محاولات أبيها غير المجدية لحل مشاكله المالية.

مسكين هيغو. الشيء الوحيد الذي قد يرثه عن أبيه هو اللقب الذي كان عملياً، عديم النفع في هذا العصر. لأن كل ما هو قابل للبيع، قد بيع منذ مدة طويلة. وبما أن البيت نفسه مرهون، افترضت أوليڤيا أن ما تركه أبوها يكفي فقط لدفع نفقات الجنازة، ولتقديم مكافأة صغيرة لمديرة المنزل لقاء عطفها وحنانها على أبيها.

عندما حان موعد الجنازة، لم يكن أي خبر قد وردها بعد من دومينيك. وحاولت أوليڤيا أن تعزّي نفسها أنه لم يعرف بموت أبيها.

وقفت بجانب هيغو في الصف الأول من الكنيسة القديمة، وقد بدت كلمات الكاهن الدينية المهيبة مناسبة تماماً مع هطول المطر. لكنها كانت مستعدة لاعطاء أي شيء مقابل أن يكون دومينيك بجانبها، خاصة بعدما رأت والدته بين المشيعين في القدّاس الجنائزي.

كان من الحماقة منها ألا تدرك أن المفروض على «الكونتيسة تنتردن» أن تحضر جنازة جار قريب. وفيما بعد، عندما وقفت مع أخيها عند بوابة المقبرة يصافحان المعزّين شاكرين أولئك الذين جاؤوا من مناطق بعيدة لحضور الجنازة، كانت أوليڤيا تشعر بتوترها يزداد كلما فكرت في قرب مواجهتها والدة دومينيك.

كان الوضع غريباً جداً حقاً، إذ كان على دومينيك أن يقدّم خطيبته لأمه خاصة بعدما نشر خبر الخطوبة في الصحف.

لكن تلك المواجهة لم تكن مخيفة كما كانت تخشى، بفضل الحشود الواقفة بجانبهما. ولأن الكونتيسة العجوز بدت وكأنها انكمشت حجماً ولم تعد بذلك الطول المخيف الذي تتذكره أوليڤيا. وفي الواقع، أسفت أوليڤيا لاضطرارها إلى النظر إلى الأسفل لتحدّق في تلك السيدة العجوز النحيلة ذات الشعر الأبيض. مع أنها ما زال يجمعها بابنها ذلك الشبه الغريب فلهما الأنف المتغطرس نفسه والعينين الرماديتين الثاقبتين. قالت الكونتيسة

بخفة:

ـ صباح الخير يا أوليڤيا. تملكني الأسف حقاً عندما سمعت بخبر وفاة أبيك. كان رجلاً طيباً من نواح كثيرة. مع أنه لن يكون سعيداً برؤيتها.

قالت المرأة المسنة ذلك وهي تشير برأسها إلى الناحية الأخرى من الطريق، حيث تركن سيارة مرسيدس كبيرة بيضاء، استندت عليها امرأة شقراء طويلة نحيلة تحمل بيدها مظلة قرمزية اللون تخفي شعرها المقصوص، وفي اليد الأخرى سيكارة طويلة. وكانت ترتدي «طقماً» قرمزياً براقاً لا يتلاءم مع المناسبة.

ـ آه، يا إلهي!

هتفت أوليڤيا بذلك وهي تشهق بذعر.

ـ وهذا هو شعوري أنا بالضبط.

قالت الكونتيسة هذا بابتسامة باهتة ثم تابعت تقول:

ـ العزيزة باميلا لم تعرف قط متى يجب عليها ألا تلفت الأنظار، أليس كذلك؟

ـ أنت على صواب تماماً!

قالت أوليڤيا هذا هامسة وهي تصرف بأسنانها. وإذا بها تجفل لسماع ضحكة صدرت عن المرأة المسنة الواقفة بجانبها:

ـ حسناً، يجب أن أذهب وأدعك لرحمة زوجة أبيك السابقة.

وعندما بدأت تضع قفازيها تابعت تقول:

ـ ولا أدعي بأن خطوبتكما لم تكن مفاجأة، لأنها كانت مفاجأة فعلاً... وأنا متشوّقة للترحيب بك في الأسرة في المستقبل القريب، يا أوليڤيا.

قالت ذلك بابتسامة أخرى من ابتساماتها الثلجية الخاطفة.

ـ لست بالضبط العروس التي كنت أتخيلها لابني، لكنني بدأت أرى أنك ستكونين ملائمة... وملائمة جداً في الحقيقة.

عندما ابتعدت السيدة المسنّة بهدوء، تمتم هيغو متنفساً الصعداء!

- الحمد لله... لا بد أن أقول يا أوليڤيا إن التنين العتيق قد قبل بك أخيراً.

- هذا أقل ما يشغل بالنا الآن. هل رأيت تلك الواقفة بجانب السيارة البيضاء عبر الطريق؟

- آه، رباه! هذا كل ما كان ينقصنا.

لم يكن ظهور زوجة الأب غير المتوقع محنة شاقة كما كان الأخوان يخشيان.

وربما لأن باميلا كانت دوماً عديمة الاحساس كالتمساح، اعتقد هيغو أن هذا هو السبب الذي جعلها تأمر سائقها أن يتبعهما عندما عادا إلى بيتهما القديم، فضمنت لهما، على الأقل، ألاّ يواجها وحدهما وحشة بيتهما الخالي بما فيه من ذكريات.

هتفت باميلاً بوقاحة وبصوت حاد وهي تدخل خلفهما إلى المنزل.

- مرحباً يا أعزائي... نعم أعلم أنكما لا تريدان رؤيتي.

وأطلقت ضحكة ثاقبة وهي تجول، مغضنة الأنف، في الغرف الخالية التي بيعت محتوياتها منذ زمن طويل.

- صدّقا أو لا تصدقا، لقد شعرت بالأسف على وفاة أبيكما. يا للمسكين! لم يستطع قط أن ينسجم مع الحياة العصرية، أليس كذلك؟

كان في كلمات هذه المرأة من الحقيقة ما منع أوليڤيا من طردها من البيت كما كانت تنوي أصلاً. ولم يكن هذا يعني، طبعاً، أنها ستصفح عن زوجة أبيها التي دمّرت حياة والدها، وحوّلت مراهقتها هي جحيماً.

قالت باميلا:

- ظننتك ستدعين بعض الملاّك إلى البيت لتقديم شراب لهم بعد الجنازة، ولكنني أرى الآن أنه ما كان بإمكانك أن تفعلي هذا، والبيت بهذه الحالة، كما لا أظن أن لديكما شراباً، أليس كذلك؟.

أجابها هيغو بحزم:

- لا. ليس لدينا مع الأسف.

- لا بأس.

قالت له باميلا هذا باسمة قبل أن تذهب إلى الباب الخارجي وتأمر سائقها بأن يحضر سلة من القصب من صندوق السيارة ويأخذها إلى المطبخ الواسع، ثم قالت لهما:

- الطريق طويل من شمال انكلترا إلى هنا، ولهذا طلبت من مدبرة المنزل أن تضع لي بعض الأطعمة للرحلة، إذ قد أجوع. قد لا تريدان شيئاً لكنني بحاجة إلى ما آكله.

كان شيئاً غير مألوف لأوليڤيا أن تجد نفسها جالسة مع زوجة أبيها حول مائدة المطبخ، يأكلون شطائر باميلا ويشربون القهوة...

- حسناً... علي أن أقول لك يا هيغو إنني مسرورة لأنني أراك بصحة جيدة. وأنت أيضاً يا أوليڤيا، سمعت أنك حسّنت العمل. ولكن كيف ستتمكنين من الانسجام مع سمكة القرش العجوز الفظيعة حماتك تلك؟ فمن المستحيل أن يعيش معها إنسان، أليس كذلك؟

- في الحقيقة، لم أفكر في هذا الأمر.

لقد وضعت باميلا اصبعها على جرح كامن. وتابعت زوجة أبيها تقول:

- لقد أسديت إليك فضلاً كبيراً طول السنوات الماضية. أعرف أنك تظنينني قد تجاوزت الحد. ولكنك في الحقيقة، كنت صغيرة السن. وما كان لذلك الحب أن يدوم، فقد كانت أمه المخيفة ستبعدكما عن بعضكما البعض، لذا كان من الأفضل القضاء على ذلك الحب في المهد، وترك ذلك الفتى ينغمس في لهو الشباب وطيشه قبل أن يدرك فجأة ما كان يفتقده طوال تلك السنوات. وهذا ما حدث، أليس كذلك؟ وهكذا ترين أنني أسديت إليك معروفاً، لا؟

- بلى، ولكنك فعلت ذلك بطريقة مخيفة.

قالت أوليڤيا هذا بابتسامة ساخرة بينما وقفت زوجة أبيها قائلة إن الوقت حان لذهابها.

- يا إلهي، يا له من يوم!

قال هيغو هذا متأوهاً وهو ينظر إلى المرسيدس البيضاء تختفي عن الأنظار:

- من الغريب ألا أشعر اليوم بنصف الحقد الذي كنت أشعر به تجاهها.

تنهدت أوليفيا:

- وأنا فكرت في الشيء ذاته. والآن من الأفضل أن أتابع الإجابة عن بعض تلك الرسائل.

قالت هذا قبل أن تذكره بألا يتأخر صباح الغد عن موعدهما مع المحامي.

ولأنها كانت مرهقة من أحداث اليوم الماضي، تثاقلت أوليفيا في النهوض صباح اليوم التالي على قرع عنيف على الباب الخارجي.

وعندما نظرت إلى الساعة، تأوهت وهي تجدها السابعة فقط. الوقت باكر جداً على مجيء هيغو فالموعد عند العاشرة صباحاً ولهذا فكرت أن تتجاهل القرع فلا بد أن يسأم الزائر ويذهب.

بدا وكأنها على صواب، إذ ساد المنزل صمت مطبق. وكانت على وشك العودة إلى النوم، عندما سمعت صوت صرير لوح خشب أرضي خارج غرفتها.

آه رباه! إنه هيغو. ما الذي دهاه حتى يأتي باكراً بهذا الشكل؟

تأوهت متذمرة وهي تسمع الخطوات الثابتة تقترب من سريرها:

- ابتعد من هنا.

- حسناً، أنا لا أعتبر هذا ترحيباً بي منك. خصوصاً بعد أن اجتزت المحيط الأطلسي وجئت من المطار إلى هنا مباشرة.

وكان هذا صوتاً مألوفاً يتذمر بصوت عالٍ قبل أن يجلس على السرير.

صرخت مبتهجة:

- دومينيك.

وأخذت تتصارع مع الأغطية وهي تناضل لتجلس.

- آه، يا دومينيك... لا أستطيع أن أخبرك كم افتقدتك!

قالت ذلك وهي تلقي بذراعيها حول عنقه وتنفجر باكية. وهمست بعد ذلك بلحظات وهو يناولها منديلاً كبيراً أبيض لتجفف دموعها.

- بحق الله... لست من النوع الذي يبكي بهذا الشكل.

ونظرت إلى وجهه الوسيم وأهدابها مبللة بالدموع.

- السبب... السبب أنني افتقدتك كثيراً... كثيراً جداً. أبي مات وكل شيء كان فظيعاً و...

- أعرف هذا يا حبيبتي.

وأحنى رأسه يمسح دموعها ثم احتضنها وهزّها برفق وكأنها طفلة.

تملكها شعور بالهناء والرضاء لعناقه، وقد أنعشتها ملامسة معطفه البارد.

قال قبل أن يسندها إلى الوسائد:

- همم... ما ألذّ الدفء والحنان في عناقك.

ثم وقف ليخلع معطفه.

- هل عليّ أن أنهض لأطهي لك طعاماً الآن؟

- أبداً. الواقع أنني جائع إنما ليس إلى الطعام بل إلى رؤيتك، فأنا لم أرك منذ أسبوع. وفي الواقع، أريدك أن تعلمي أنني اشتقت إليك كثيرا... كثيراً.

قال هذا بلهجة مسرحية وهو يضحك وينظر إليها. فبادلته الضحك، قائلة:

- نعم، هذا ما أراه تماماً.

وحاولت السيطرة على لهفتها وارتجاف جسدها وهي تتأمل هذا الرجل القوي.

- حسناً، أسرع بالدخول إلى الفراش، أما أنا فسأحضر لك ما تأكله.

فقال وهو يحتضنها بشدة:

- أيتها القاسية القلب! حسناً... لا تخافي سأبقى ملتزماً بحدودي

ولكن قريباً يا حبيبتي سأزيل جميع الحدود والويل لك مني عندئذٍ.

ـ آه، نسيت أن أسألك عن أختك؟ هل زوجها بخير؟ أعني بعد حادث الاصطدام.

ـ إنه بخير، وهو يتماثل للشفاء. والآن أرجوك اسكتي ودعيني أعانقك قبل أن أفقد عقلي.

ثم شدها إليه ولم يعد هناك حقيقة أخرى سوى عناقه الرقيق وخفقات قلبها المتسارعة المماثلة لخفقات هذا الرجل الذي تحبه من كل قلبها.

***

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة